الموجز

من تاريخ المغرب العربي
في العصور الإسلامية الأولى

تأليف

الدكتور عامر حميد السامرائي

المقدمة

إن أهمية مادة تاريخ المغرب تكمن في حث الطالب دائماً على النظر إلى أن الوطن العربي يمثل وحدة واحدة ،مهما بعدت المسافات وفرقت اطرافه المذاهب السياسية .

لقد كان المغرب ولا يزال جزءاً مهماً من عالمنا العربي .وما الأحداث التاريخية التي جاء بها الكُتاب اِلا انعكاس للأوضاع العامة في مشرق الدولة أو قلب الدولة العربية الإسلامية .

كان المغرب العربي نقطة الانطلاق بالثقافة ،والحضارة الإسلامية إلى الجانب الغربي ،أي إلى أوربا ،إذ بعد انتشار الإسلام في أقاليم المغرب العربي بعامة ،اجتازت قبائل البربر بالإسلام إلى أوربا ونقلت الإرث الحضاري للإسلام وأسسوا مع اخوانهم المشارقة اكبر دولة عرفها الغرب أستمرت لثمانية قرون تقريباً ،نقلوا فيها أرثهم الحضاري والثقافي ،وإلى يومنا هذا نجد الكثير من مؤلفات علماء العرب المسلمين بيد متناول الباحثين والدارسين الغربيين .

إن دراسة تاريخ المغرب العربي ،لاسيما في عصوره الإسلامية الأولى تتخللها الصعوبة لما لها من بعض التعقيدات ، وذلك لطبيعة التكوين الاجتماعي لسكانه ،إذ تغلب عليهم الأنفة والمزاج الحاد والأيمان بالمعتقدات الروحانية وأعمال السحر وغيرها .

حاولنا هنا في هذا الموجز لتاريخ المغرب العربي في أوائل العصور الإسلامية أن نقدم لطلبة الدراسات التاريخية بشكل خاص المعلومات المركزة عن جزء مهم من العالم العربي الإسلامي وطبيعة تكوينه الاجتماعي وتقبل سكانه للدين الجديد الذي قدم لهم برنامج أخرجهم مما كانوا فيه من التخلف والتدهور الاجتماعي لاسيما تحت حكم المستهدم الروماني والقوط الغربيين ، كما قدمنا للطلبة دور المسلمين الفاتحين

ودور الخلافة الراشدة وقادة الفتح في بث روح الإنسانية للدين الإسلامي وطبيعة هذا الدين ودعوته للتطور وبناء الأنسان المؤمن بالله وبرسوله وما جاء به الحق المبين .

هذا وقد جاء الكتاب مرتباً على خمسة فصول:

الفصل الأول:ـ تناولنا فيه تاريخ المغرب العربي قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الثاني:ـ تناول عمليات الفتح والتحرير الإسلامي ونشر مبادئ الدين الإسلامي.

الفصل الثالث:ـ تناول الإدارة وعصر الولاة.

الفصل الرابع:ـ تناول الأوضاع السياسية في بلاد المغرب ،وآثارها في نشوء الأمارات المستقلة

الفصل الخامس:ـ تناول الأثر الثقافي للإسلام على عموم بلاد المغرب.

والله ولي التوفيق

د. عامر السامرائي
1438هـ ـ 2017م

الفصل الأول

المغرب العربي قبل الفتح والتحرير الإسلامي

أولاً:ـ المدلول التاريخي لبلاد المغرب العربي

ثانياً:ـ جغرافية بلاد المغرب العربي

ثالثاً:ـ البيئة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي

رابعاً:ـ الحياة الدينية لبلاد المغرب العربي

أولاً:ـ المدلول التاريخي لبلاد المغرب العربي

المراد بلفظ المغرب هو كل ما يقابل المشرق من بلاد ،أي ما يقع الى غرب عاصمة الدولة العربية الإسلامية . وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله ، فجعله بعضهم يشمل بلاد الشمال الأفريقي زيادةً إلى إسبانيا (الأندلس) بعد فتحها للإسلام , وجميع الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الشامي (البحر المتوسط) مثل صقلية ،

وجنوب ايطاليا وجزيرتي سردانيا وكورسيكا والجزائر الشرقية(جزرالبليار)ميورقة[1]،ومنورقة[2]يابسة[3] .

واصطلح الكتاب على تسمية المقاطعة التي تلي حدود مصر الغربية حتى بحر الظلمات(المحيط الأطلسي حالياً) باسم (المغرب العربي) ،والتي تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الحالي وموريتانيا[4] . وقد استندت هذه التسمية إلى حقائق اجتماعية واقتصادية وجغرافية ،وعوامل تاريخية موغلة في القدم تمخضت عن وحدة الفكر والتراث والهدف والمصير[5]

.

هذا وقد عرفت بلاد المغرب العربي منذ أقدم العصور بأسماء متعددة ،إذ اطلق العرب الفينيقيون على السكان الذين سكنوا حول مدنهم طاقة (أوتيكا) وقرطاجنة أسم (أفري)[6] . وعنهم أخذها اليونان فأطلقوها على جميع سكان المغرب ابتداءً من غرب

---

[1]ـ مبورقه: جزيرة في شرق الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، كانت قاعدة ملك مجاهد العامري ،وينسب لها جماعة من العلماء . ياقوت الحموي، معجم البلدان،246/5ـ247

[2]ـ منورقة: جزيرة عامرة شرقي الأندلس .م. ن، 216/5.

[3]ـ العبادي: أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص9.

[4]ـ زغلول: سعد عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الأسكندرية،61/1.

[5]ـ بن عبد الله: عبد العزيز، معطيات الحضارة المغربية، الرباط،1963م،ج7/1.

[6]ـ مؤنس: حسين، فتح العرب للمغرب، القاهرة،1947م؟،ص1.

مصر حتى بحر الظلمات[7]. ومنها أشتق أسم (أفريقية) أي بلاد الأفري[8] . ثم أخذ مدلول هذه اللفظة في الاتساع ليتماشى مع اتساع نفوذ الغزاة الرومان حتى شمل بلاد المرب معظمها[9] .

وعندما انطلقت حروب التحرير العربية الإسلامية ووطأت أقدام المسلمين اراضي المغرب أطلقت لفظة (أفريقية) للدلالة على جميع الأقاليم التي مما يلي اقليم طرابلس غربا .وقد كتب والي مصر عمرو بن العاص كتابا الى الخليفة عمر بن الخطاب ((رضي الله عنه)) بعد تحرير مدينة طرابلس يستأذنه فيه بمواصلة الزحف غربا ،وجاء فيه " أنا قد بلغنا طرابلس وبينهما وبين أفريقية تسعة أيام ،فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل[10] . ثم تحدد مدلولها لتعني الإقليم الذي نشأت فيه فيما بعد مدينة القيروان ، على الرغم من أن بعض المؤرخين ظل يخلط بين تسمية أفريقية والمغرب ولا يميز بينهما ، وانتهى لفظ المغرب ليشمل عموم أقاليم البلاد وحدودها من غرب مصر حتى بحر الظلمات[11](المحيط الأطلسي) .

---

[7]ــ سالم: السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، القاهرة،1966م،ج125/2.
[8]ــ مؤنس، المصدر السابق والصفحة.
[9]ــ م.ن.ص2
[10]ــ البلاذري: أحمد بن يحيى(ت279هـ) ،فتوح البلدان، عنى بمراجعتها رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت،1978م،ص227.
[11]ــ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص9ـ10.

هذا وقد وضع المؤرخون والجغرافيون مصطلحا جديداً لبلاد المغرب العربي إذ بنى على تقسيمه الى ثلاثة اقسام وهمية ، أي مجرد معلومة يتناقلونها بدون وضع حدود طبيعية إضافية بين تلك الأقسام . وجاء التقسيم بحسب قربها أو بعدها عن عاصمة الدولة العربية الإسلامية أي مركز الخلافة في الشرق وهي :ـ

1ـ المغرب الأدنى:

وهو أول أقاليم المغرب العربي ، وأقربها إلى مركز الخلافة الإسلامية ، سواء أكانت العاصمة المدينة المنورة أم دمشق أو بغداد .

ويمتد هذا الإقليم من مدينة طرابلس حتى مدينة بجاية غربا ، وقاعدة هذا الإقليم مدينة القيروان في عهد تأسيسها وعهد حكم الأغالبة (184ـ296هـ/800ـ908م) ، ثم المهدية أيام حكم الفاطميين (299ـ567هـ/909ـ1071م) ، ثم مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى يومنا هذا[12] .

2ـ المغرب الأوسط

وسمي بالأوسط لكونه يتوسط المغربين الأدنى والأقصى ، وحدود هذا الإقليم من بجاية حتى وادي ملوية وجبال تازة ، وقاعدته مدينة تلمسان[13] ،وهو

---

[12]ـ م. ن. نفس الصفحة.

[13]ـ تلمسان: وهما مدينتان متجاورتان مسورتان ،بينهما رمية حجر،احدهما قديمة والأخرى حديثة ،والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب ،واسمها تافرزت ،فيها يسكن الجند واصحاب

يضم بلاد الجزائر عامة[14] . وكانت عاصمة المغرب الأوسط تباعا حسب الأسر الحاكمة ، إذ كانت تاهرت[15] ،في عهد الدولة الرستمية والتي كانت من الخوارج الإباضية ، وفي أيام الدولة الزيرية الصنهاجية التي خلفت الفاطميين في حكم المغرب صارت العاصمة مدينة أشير[16] ، التي تسمى حاليا بنيه(benia). ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة تلمسان غربا أيام دولة بني عبد الواد أو بني زيان في القرن السابع الهجري[17] .

3ـ المغرب الأقصى

ويمتد هذا الإقليم من وادي ملوية حتى مدينة أسفي[18] على ساحل بحر الظلمات[19] . وعاصمة المغرب الأقصى تناوبت بين فاس أيام الأدارسة العلويين ،والتي أسست بين عامي 172ـ198هـ ،ثم

السلطان واصناف من الناس ،واسم القديمة اقادير. ياقوت الحموي، معجم البلدان،44/2.

[14]ـ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت808هـ) ،تاريخ ابن خلدون (العبر) ، طبعة بولاق،1284هـ ،ج202/6.

[15]ـ تاهرت: أسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ،بينهما وبين المسيلة ست مراحل ،وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد .ياقوت الحموي ،م.ن،7/2ـ8.

[16]ـ أشير: مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف أفريقية الغربي مقابل بجاية في البر. ياقوت الحموي، معجم البلدان،202/1.

[17]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص11.

[18]ـ أسفي: بلدة على شاطئ البحر الشامي(المتوسط) بأقصى المغرب. ياقوت الحموي، معجن البلدان،180/1.

[19]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،101/6.

جاء المرابطون فأسسوا مدينة مراكش[20] ،واتخذوها عاصمة لهم ،وتبعهم الموحدون على ذلك[21] .

ويشمل المغرب الأقصى في الوقت الحاضر المملكة المغربية وموريتانيا . ويجب التأكيد على أن هذا التقسيم السالف الذكر لبلاد المغرب العربي ما هو الإ مجرد تقسيم اصطلاحي افتراضي أوجبته الضرورة السياسية أو الإدارية . والمغرب العربي الكبير وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في شتى النواحي الجغرافية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية .

ثانياً:ـ جغرافية بلاد المغرب العربي

يؤلف المغرب العربي بأقاليمه الثلاث ، ابتداء من خليج سرت حتى بحر الظلمات(المحيط الأطلسي) ، وحدة جغرافية وبشرية مستقلة عن غيرها ،فقد كانت ولا تزال ترتبط بروابط طبيعية وسياسية وثيقة , سكنها منذ أقدم العصور التاريخية عنصر واحد من السكان . ذكر ابن خلدون أن "المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار"[22] ،ولذلك كان له طابعه الخاص به ،وكانت حضارته حضارة منعزلة منطوية على نفسها ،ونلاحظ أن هذه العزلة التي فرضتها طبيعة البلاد أثرت تأثيرا عميقا في اللغة والدين ،فللمغرب لغته الخاصة بجانب

---

[20]ـ مراكش: أعظم مدينة بالمغرب واجلها . ياقوت الحموي، المصدر السابق، 94/5.

[21]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص11.

[22]ـ التاريخ،98/6.

اللغة العربية ،وللمغرب مذهبه المالكي الذي حافظ عليه على مر السنين .

هذا وتنقسم طبيعة البلاد الجغرافية الى ثلاثة اقسام هي:ــ

القسم الأول:ــ الإقليم الساحلي

يمتد هذا الإقليم على طول شواطئ البحر الشامي(المتوسط) ،حتى مدينة طنجة[23] ،ثم يستمر محاذيا لبحر الظلمات حتى مدينة نول[24] في بلاد السوس ،وأغلب هذه المناطق مناطق سهلية صالحة للزراعة[25] .

القسم الثاني:ــ الإقليم الجبلي

تخترق البلاد المغربية سلسلة جبال ،وهي جبال ضيقة وعرة الدروب والمسالك وتنقسم هذه السلسلة الى ثلاثة أقسام:ــ

---

[23]ــ طنجة: بلد على ساحل بحر العرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر وقال عنها ابن حوقل مدينة أزلية آثارها ظاهرة .ياقوت الحموي، معجم البلدان،43/4.

[24]ــ نول: مدينة في جنوب بلاد المغرب هي حاضرة لمنطقة فيها قبائل من البربر .ياقوت الحموي، المصدر نفسه،312/5.

[25]ــ السامرائي: خليل ابراهيم، وآخرون، تاريخ المغرب العربي، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل،1988م،ص12

الأطلس الساحلي:ـ ويمتد غربا من جبال أنجيزه على ساحل بحر الزقاق(مضيق جبل طارق) ويشمل جبال غماره وجبال الريف وجبال بسني يزناتن ترارة وبدوغ وغيرها ،وهي جبال متوسطة الارتفاع ،وأكثرها ارتفاعا جبل بني حسن الذي يبلغ ارتفاعه ما يقارب من الفي متر . وتتخذ هذه الجبال شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي[26] ، وأهمها:

1ـ أطلس التل: وهي سلسلة جبلية تمتد من المغرب الأقصى وتنتهي في تونس بجبال الخمير وتشمل جبال كندافة وكلاوة والمدحوس وبادر وتلمسان وونشريس والجرجرة . وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية[27] ،ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التل وأطلس المتوسط ،وعلى الأخص في القسم الغربي من المغرب الأوسط[28] .أما الجزء الشرقي فأقل ارتفاعا وأكثر تقطعا[29] .

2ـ الأطلس الصحراوي[30]: وتبدأ هذه السلسلة من المغرب الأقصى ،إذ تحمل أسم جبال أطلس الكبرى

---

[26]ـ الشرقاوي: محمد عبد المنعم ،وآخرون ،ملامح المغرب العربي ،الأسكندرية،1959م،ص9..عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان،1962م،ص15.

[27]ـ الشرقاوي، المصدر نفسه،ص13.

[28]ـ المصدر نفسه والصفحة.

[29]ـ عبد العزبز سالم، تاريخ المسلمين،ص15.

[30]ـ هذه السلسلة يطلق عليها ابن خلدون أسم((جبال درن)) ،تاريخ ابن خلدون،10/6.

،وهي اكثر جبال أطلس ارتفاعا ولا توجد بها ممرات يسهل المرور منها ،ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في عزلة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب.

وتستمر جبال أطلس الكبرى ممتدة في المغرب الأوسط ، وتشمل جبال القصور ، وجبال العمور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، وتنتهي بجبال زغوان في المغرب الأدنى . واغلب هذه الجبال تكسوها الغابات وتتوجها الثلوج . وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب وسهول مرتفعة يشتغل فيها السكان برعي الماشية ، واغلب هذه الهضاب تقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الصحراوي في المغرب الأوسط[31]

القسم الثالث:ــ الاقليم الصحراوي

يمتد هذا الإقليم من واحات برقة[32] ،ثم فزان[33] ،وزويلة[34] ، وأرجلا الى سجلماسة[35] ، إلى وادي درعة ، حتى بحر الظلمات(الأطلسي) غربا.

---

[31]ــ جوليان: اندريه، تاريخ أفريقية الشمالية حتى الفتح العربي، باريس، 1951م،ص18ـ19. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين،ص15.

[32]ــ برقة: أسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية ، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن. ياقوت الحموي، معجم البلدان،388/1.

[33]ــ فزان: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، بها نخل كثير وتمر كثير، ومدينتها زويلة السودان، والغالب على ألوان أهلها السواد. ياقوت، المصدر نفسه،260/4.

على الرغم من الصبغة الصحراوية التي حملها هذا الإقليم إلا أن فيه ينابيع المياه والواحات التي تنتشر في اغلب المواضع[36] .

وعبر هذا الإقليم كانت القوافل التجارية تمر قادمة من مصر إلى المغرب الأقصى نظراً لقصر هذا الطريق عن الطريق الشمالي[37] .

أما المناطق التي لا خصب فيها ولا ماء فهي الهضاب التي تمتد بين أطلس الكبرى والوسطى حتى بحر الظلمات ، ففي المغرب الأقصى توجد هضبة المزيتا ، وفي المغرب الأوسط تمتد هضبة الشطوط التي تتميز ببحيراتها ، وبينها بقع ممر تازة[38] . وتعرف هذه الهضاب باسم الحماده[39] .

أما السهول فتقع غالبا على ساحل بحر الظلمات(الأطلسي) والبحر الشامي(المتوسط) ، واشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى ،

---

[34]ـ زويلة: بلدان احدهما زويلة السودان مقابل اجدبيه في البر بين بلاد السودان وأفريقية، وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء. ياقوت، المصدر نفسه،159/3ـ160.
[35]ـ سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهي وسط رمال كرمال زرود. ياقوت، المصدر نفسه،892/3.
[36]ـ السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص13.
[37]ـ زغلول، تاريخ المغرب،72/1ـ74.
[38]ـ عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين،ص16.
[39]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،100/6.

أما السهول الساحلية في المغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها[40] .

وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار وفيها سهل زيق بوهران وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط ، وسهل وادي مجرة في المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس الغنيين في المغرب الأقصى ، وكلاهما مرتفع .

وان هناك مجموعتان من السهول الداخلية . الأولى: تمتد من مصب نهر تنسيف الى وادي ملوية ، ويشتمل على السهل المطل على بحر الظلمات ، وسهول وادي سبو ، وممر تازة وسهول ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز[41] ، والذي يخترقه نهر تنسيف ثم منخفض تادلا .

أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات[42] .

ثالثا:ـ البيئة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي

سكن بلاد المغرب منذ أقدم العصور اقوام عرفوا باسم البربر ، والتسمية القديمة لسكان المغرب هي (أمازيغ) وهي كلمة بربرية معناها الرجل الحر

---

[40]ـ جوليان، تاريخ أفريقية الشمالية،ص18.

[41]ـ جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية ,ص18.

[42]ـ ابن خلدون، التاريخ،101/6.

الخشن أو الكريم النسب ، وهو الاسم الذي كان ولا يزال فسم من السكان في شمال أفريقية يطلقونه على الواحد منهم . ويجمع على(امازيغن) . أما كلمة بربر التي اطلقت على سكان المغرب فهي تسمية دخيلة اطلقها عليهم من غلب عليهم من الأمم كالرومان والاغريق[43]

هذا وقد سكن بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي ثلاث طوائف من السكان وهم:ـ

1ـ السكان وهم(الأيمازيغن) البربر

2ـ الروم وهم البيزنطيون

3ـ الأفارقة وهم طارئون على البلاد المغربية

1ـ البربر

وهم السكان الذين يعمرون بلاد المغرب ، وقد تباينت آراء المؤرخين في تفسيرهم لكلمة البربر ، فمنهم من يفسرها تفسيراً لغوياً ، إذ كانت تختلط فيها الأصوات غير المفهومة . حتى قيل لهم: ((ما اكثر بربرتكم))[44] ، وقيل أن لغة البربر يكثر فيها استعمال حرف الباء والراء ، فقيل ما هذه البربرية[45] .

---

[43]ـ العبادي، في تاريخ المغرب، ص13.

[44]ـ ابن خلدون، التاريخ،89/6. السلاوي: أحمد بن خلدون الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة،1310هـ/1892م،ج29/1.

[45]ـ زغلول، تاريخ المغرب، 80/1.

وجاء في ((دائرة المعارف الإسلامية)) أن اللغة هي المعيار الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في الوقت الحالي لتمييز الأمازيغ الذين يلاحظ في هيآتهم خصائص متنوعة جداً ، بل متباينة أحياناً ، فلا يمكن التحدث عن عِرق أمازيغي متجانس ، ولا سيما أنهم كانوا منقسمين فيما بينهم اشد الانقسام ، مما حال دون تشكيلهم أمة واحدة . ولا يزال شطر كبير من تاريخهم مجهولاً على وفرة الآثار الباقية من عصور ما قبل التاريخ في بلاد الأمازيغ الواسعة . ومع وجود النقوش والصور الجدارية الكثيرة التي تشهد بمآثرهم التاريخية ، والكتب التي ألفها عنهم اليونان والرومان والعرب . وخير مثال على ذلك ، اللغة الأمازيغية التي لم يتم إلى اليوم تحديد المجموعة اللغوية التي تنتمي إليها ، ولهذا من الصعب تحديد الأصل الذي انحدر منه هذا الشعب في غابر الأزمان . مع العلم أن فرضيات كثيرة وضعت بشأنهم من بينها: أن الأمازيغ هم السكان الأصليون لشمالي أفريقية ولم يفدوا إلى هذه المنطقة من بلد آخر ، وقيل أيضاً أنهم اما شرقيون وأما ايجيون ((نسبة الى بحر ايجة)) . أما المؤرخون العرب فيعدونهم شرقيين . أي كنعانيين أو حميريين وهي فرضية تبناها وعززها بالأدلة المستشرق هلفرتز ((hel ferist)) ، في حين انفردت فرضية الأصل الكنعاني بتأييد المؤلفين المحدثين ((أينشتاين ودوماس وسلوشز)) .

وينسب مؤرخو العرب والبربر الذين عنوا بأنساب البربر واحوالهم فيرجعون نسبهم إلى أصول عربية جزرية سامية . ويقولون أنهم من أبناء قيس عيلان .

يبدو أن فرضية الأصل الكنعاني هي الأقرب إلى الصحة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الامتداد الجغرافي من بلاد الشام حتى ساحل المحيط الأطلسي ، الذي يمثل وحدة جغرافية واحدة منذ القدم ، وأن انتشار الكنعانيين الذين نزحوا من الجزيرة العربية ، واستوطنوا في بلاد الشام ، التي عرفت مواطنهم بأسمائهم ، قد طرأ على استيطانهم هذا هجرات متتابعة توزعوا من خلالها بين طول ساحل البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي .

هذا وقد وصف ابن خلدون البربر بأنهم: " جيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البساط والجبال من تلوله وارباضه وامصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين . ومن الخوص والشجر . ومن الشعر والوبر ، وبظعن أهل العز والغلبة منهم لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة . لا يتجاوزون فيها ، الريف إلى الصحراء والقفار إلا مس ، ومكاسبهم الشاة والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الأبل من مكاسب أصل النجعة منهم شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأضعان في نتاج الأبل ، وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم واكثر اثاثهم من الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالحلف"[46] .

وقد كان البربر يتألفون من ثلاثة أقسام رئيسة:ـ

---

[46]ـ تاريخ ابن خلدون ،89/6.

القسم الأول:ـ في شرقي البلاد (طرابلس وبرقة والجريد والأوراس) تقيم قبائل لواتة المتفرعة الى هوارة وأورغة ونفزاوة وأوربة .

القسم الثاني:ـ في غرب البلاد(المغرب الأوسط والمغرب الأقصى) تقيم قبائل كتامة في منطقة القبائل الصغرى ، والزواوة في منطقة القبائل الكبرى ، والزناتة في الساحل الجزائري بين منطقة القبائل ونهر الشلف . وبنو يفرن في المنطقة الممتدة بين نهر الشلف شرقاً ونهر مولوية غرباً ، وغمارة في الريف المغربي ومصمودة على الساحل الأطلسي وجزولة في جبال الأطلس الكبير ، ولمطة في جنوبي المغرب ، وصنهاجة المعروفة باسم أهل اللثام التي تعيش عيشة البدو الرحل في الصحراء الغربية .

القسم الثالث:ـ في البقاع المحاذية للهضاب العليا ، والممتدة من طرابلس إلى جبل عمور تقيم قبائل زناتة ، ومن تلك البقاع تنتشر تدريجياً نحو المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

وتتفرع قبائل المغرب إلى فرعين كبيرين هما:ـ

1ـ البتر

وتسموا نسبة إلى مادغيس بن بر بن قيس عيلان الملقب بالأبتر ، وقبائلهم كثيرة وتنتشر في مناطق واسعة من بلاد المغرب العربي . ومعظم قبائل البتر رحل يغلب عليهم التنقل من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء ، ولذلك تنتشر في الأقاليم الممتدة من غدامس

إلى السوس الأقصى . وهي تكون أغلب سكان القرى والمناطق الصحراوية .

وقد امتازت قبائل البتر بالروح الحربية العالية ، إذ يعد فرسانهم من اشجع فرسان قبائل البربر, وكان لهم دورْ فاعل في نشر الإسلام في المغرب العربي والأندلس[47] .

وينقسم البربر البتر إلى أربع عشائر رئيسة هي: ضريسه ،نفوسة ،أداسه وبنو لواي أو لواتة ، وتنقسم ضريسه إلى مكناسة ،وزناتة ،ويعد ابن خلدون زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته ،ومن زناتة جراوة ومغراوة ، وبنو يفرن وبنو زيان وبنو مرين[48] .

وكان للزناتيين فن خاص بهم ، يقوم على استعمال الدروع الجلدية وركوب الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع ، وكانت طريقتهم في القتال تقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر[49] .

2ـ البرانس

وهم الفرع الآخر من قبائل البربر ، وعرفت هذه القبائل بالاستقرار والسكن في المدن ، وكان معظمهم ينزل في المناطق الساحلية الغربية من البحر

---

[47]ـ السامرائي ،تاريخ المغرب العربي، ص17.
[48]ـ تاريخ ابن خلدون،114/6.
[49]ـ العبادي، في تاريخ المغرب العربي،ص15.

والمناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب وقيل هم يتحضرون بالحضارة اللاتينية[50] .

ويبدو ذلك التحضر متأثراً بثقافة سكان البحر المتوسط وحضارته ، كالرومان والوندال وغيرهم .

ومن أشهر قبائل البرانس ، قبيلة صنهاجة التي تتكون بدورها من مجموعة قبائل امتدت بطونها وفروعها إلى مختلف أنحاء المغرب[51] . وقبائل أزداجة وأوربة ، وأوريغة وكتامة وعجيسة ، واضاف النسابة قبائل لمطة وهسكورة وجزولة[52] . وقبائل أوربة ومواطنهم المعروفة في مناطق تلمسان ، ثم انتقلت إلى مناطق وليلى بعد اندحار كسيلة أمام زهير بن قيس البلوي سنة 69هـ ، ومن قبائلهم ديقوسه وزهجولة ولجاية ومزياته ونفاسة وتيجة[53]

وقبائل اوريغة أو هوارة وهم بنو اوريغ بن برنس ويقال انهم من عرب اليمن وإنهم أحد بطون قضاعة ، وتارة يقال: إنهم من ولد المسور بن الكاسك بن خمير[54] .

وقبائل مصمودة وهم أبناء مصمود بن برنس ، ومواطنهم الأصلية في شمال المغرب الأقصى .

---

[50]ـ سالم، تاريخ المسلمين وآثاره في الأندلس،ص19 .
[51]ـ العبادي، المصدر السابق والصفحة.
[52]ـ ابن خلدون، المصدر السابق،90/6 . السلاوي، الاستقصاء ،31/1.
[53]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،146/6.
[54]ـ المصدر نفسه،139/6.

وتبدأ رقعة انتشارها من حدود بلاد الريف إلى بجر الظلمات غرباً ثم تمتد إلى الجنوب إلى تامسنة[55] ودكالة[56] حتى جبال الأطلس الكبير والمناطق المطلق على إقليم السوس ، وقد اختصت مصمودة بسكنى جبال المغرب الأقصى ، وظلت على حالها حتى دخول القوات الإسلامية بلاد المغرب . وكذلك من قبائل مصمودة قبيلة برغواطة[57] .

هذا وقد اتصف البربر بصفات أعطت دليلاً للمؤرخين ليثبتوا انهم من أصول عربية ، إذ تتلخص تلك الصفات بـ :

1ـ استعمالهم الخيول الأصيلة لاسيما في معاركهم ، وبخاصة الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع .

2ـ طريقتهم في القتال تمتاز بخفة الحركة وسرعة الكر والفر ، وهي فنون عرف بها العرب .

3ـ التكوين القبلي والعشائري للبربر ، إذ يكون متشابهاً للتكوين القبلي في جزيرة العرب وما يحيط بها .

4ـ الطبيعة البدوية التي تميز قبائل الصحراء المغربية الكبرى ، كاستعمالهم لبيوت الشعر واستعمال الجمال للتنقل .

---

[55]ـ تامسنه: قرية كتامة وزناتة قرب المسيلة وأشير بالمغرب. ياقوت الحموي ، معجم البلدان،7/2.

[56]ـ دكالة: بلد بالمغرب يسكنه البربر .ياقوت الحموي ،المصدر نفسه،459/2.

[57]ـ ابن خلدون ، المصدر السابق ،207/6.

5ـ عزة النفس و(الأنفة) التي يمتلكها العربي ويثور ويغضب لها وترتعد لها فرائسه لاسيما عندما تُمس كرامته .

6ـ اعتزازه بشرفه ، ويمثل الشرف أعلى مراتب الكرامة والخلق العربي .

7ـ الكرم والغيرة التي اتصف بها البربر ، وهي صفة ملازمة للعربي أينما رحل أو حط .

8ـ اعتزاز البربر بانتسابهم للعرب لا يعادله اعتزاز ، وقد استمسك بها كُتابهم وشعراؤهم وافتخروا بها على من عداهم .

9ـ قرب حروف اللغة الأمازيغية من حروف اللغة العربية ، من جهة "، واستعمال الحروف العربية بالنطق إذ ينطق الأمازيغ بالعربية لتشابه الحروف من جهة أخرى .

10ـ أسلوب كتابة الحروف عند الأمازيغ من اليمين الى اليسار وهذا حال الكتابة بالعربية .

3ـ الأقليات

لقد سكن المغرب العربي من غير قبائله من البربر أقليات غير وطنية . ومن هذه الأقليات:ـ

أـ الروم البيزنطيون

وهم الجاليات الرومانية التي آثرت البقاء في المغرب ، وكانوا يتمركزون في بعض إقليم الجريد

وقسطيليه[58] . وهؤلاء كانوا يدينون بالنصرانية . وعندما دخل المسلمون المغرب ، دخل بعضهم الإسلام .

ب ـ الأفارقة

وهم جاءوا مع الرومان ودخلوا في خدمتهم واختلطوا بهم حتى انهم تأثروا بهم وبعاداتهم وتقاليدهم ، واعتنقوا النصرانية ، وكانوا مؤيدين ومناصرين للخارجين على السلطة المركزية في المغرب[59] . وقد اسلم الكثير منهم على يد العرب المسلمين بعد التحرير .

ج ـ السودان

ويشكلون نسبة قليلة ويعود وجودهم في المغرب إلى العهد القديم بحكم العلاقة التي كانت تربط المغرب مع الأمم السودانية[60]

زيادة على ذلك كان هناك الأقلية اليهودية التي انتشرت في المغرب وكانوا يمارسون الأعمال التجارية والصناعية والمرابات ، وذلك شأنهم في كل زمان ومكان .

رابعاً:ـ الحياة الدينية لبلاد المغرب

---

[58]ـ مجهول ،الاستبصار في عجائب الأمصار ،نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ،مطبعة جامعة الإسكندرية 1958م،ص15.

[59]ـ زغلول ،تاريخ المغرب،16/1.

[60]ـ يولم: دينز ،الحضارات الأفريقية، ترجمة نسيم نصار، ط2، بيروت،1982م،ص22.

لقد تباينت المعتقدات الدينية لسكان المغرب عبر التاريخ ، إذ كانت الديانة بحسب طبيعة تبعية البلاد . وكانت تلك الديانات والمعتقدات ، منها معتقدات سماوية ومنها الوثنية والمجوسية ، إذ تبلورت تلك المعتقدات بدءاً باتخاذهم مظاهر الطبيعة آلهة لهم يقدمون لها القرابين ويقدسونها . منها الآلهة ما كورنا ويونا وماركو رفوس ومانيلا[61] .

ووصل تطور المعتقد عندهم إلى أن قدسوا ملوكهم واعتبروهم آلهة[62] .

ويبدو انهم قد تأثروا بثقافة سكان البحر المتوسط الساحل الشرقي ، إذ كانوا يعتقدون بأن الملك آلهة وهو مصان غير مسؤول ويحكم على وفق نظرية الحق الإلهي .

أيضاً عرفوا عبادة الأصنام والأوثان ، إذ كانت اقوام من جروارة وملكتهم الكاهنة وموطنهم جبال أوراس يعبدون صنماً كبيراً من الخشب[63] .

زيادة على ذلك كانت أعمال السحر والشعوذة والتنبؤ سائدة ومنتشرة بين سكان المغرب وكانوا يعتقدون بها ، ولذلك كانت عقليتهم سريعة الانقياد للزعماء والقواد الذين يعرفون استغلال هذا الضعف ، ولهذا ترى أن كل الحركات السياسية المشهورة في المغرب تزعمها أناس

---

[61]ـ السائح: الحسن ،الحضارة المغربية عبر التاريخ، الرباط،1975م،58/1.

[62]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،94/6.

[63]ـ السائح ،المصدر السابق،85/1.

باسم الدين واستخدموا السحر والخرافات لجذب الأنصار والأتباع ، وخير مثال ثورة الكاهنة التي قاومت الفتح الإسلامي[64] .

ثم تأثر المغرب بالمعتقد الجديد وهو دين المسيحية ، إذ بعد انتشاره في الجزيرة وحوض البحر المتوسط ، أدى إلى الانتشار بين القبائل المغاربية التي تستوطن المدن الساحلية التي كانت خاضعة أو مجاورة للسيادة الرومانية البيزنطية ، ثم أخذت المسيحية تتغلغل داخل مناطق المغرب لاسيما العمق من المغرب وصولاً إلى الصحراء والساحل الأطلسي . علماً أن الديانة الموسوية نسبة لبني اسرائيل كانت قد وجدت لها مكاناً في بلاد المغرب[65] ولو كان محدوداً ، إلا أنه عندما وطئت النصرانية أرض المغرب وجدت مكاناً أوسع لها من الموسوية .

والحقيقة أن جميع تلك الديانات لم تكن ذات تأثير نفسي عميق وكبير على السكان المغاربة ، بل كان تأثيرها سطحياً ضعيفاً ، ولم يكن لها الغلبة بدليل أن المسلمين لم يجدوا الصعوبة البالغة في كسب ود المغاربة ودخولهم بالإسلام ، حتى أصبحوا من أشد الناس دفاعاً عنه[66] .

---

[64]ـ ابن عذارى المراكشي: أبو العباس أحمد بن محمد(كان حياً سنة712هـ) ،البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ،نشر كولان وليفي بروفنسال، ليدن،1948م،ج37/1.

[65]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص16.

[66]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص17.

وروي عن سيدنا عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) أنه قال: "والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه فنظرت الى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمر لا تحزن فأن الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب...."(67)

70- ابن حزم القرطبي: علي بن أحمد بن سعيد(ت456هـ)فضائل الأندلس وأهلها, دار الكتاب الجديد, بيروت,1387هـ/1968م,3

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

أولاً:ـ الدوافع والأهداف

ثانياً:ـ مراحل الفتح

1ـ المرحلة الاستكشافية

2ـ مرحلة الجيوش المنتظمة

3ـ دور عقبة بن نافع بعمليات الفتح والاستقرار

ثالثاً:ـ العوامل التي ساعدت على فتح المغرب للإسلام

يُعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي وتحريره من السيطرة الرومانية البيزنطية نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية للقضاء على قوة الامبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام ، خصوصاً

وأن المغرب في ذلك الوقت كان ولاية من الولايات التابعة لها[68] .

أن العقلية العربية الإسلامية ذات بعد استراتيجي ، اذ كانت تهدف بالأساس إلى نشر الدين الإسلامي أولاً ، وابعاد الخطر الروماني البيزنطي عن الممتلكات الإسلامية ثانياً . ومحاولة توسيع مساحة الدولة العربية الإسلامية من جهة ، ومحاصرة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية التي امتنعت عن الجيوش الإسلامية من جهة أخرى . وتبدأ الحملات الإسلامية في شمال أفريقيا بعد أن تمت السيطرة على مصر وبناء قاعدة عسكرية في الفسطاط بقيادة عمرو بن العاص ، إذ قام بالتحرك اِتجاه اقليمَي برقة وطرابلس سنة 23هـ لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم البيزنطيين الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى ، إذ كان يخشى أن يحاول استعادت مصر عن هذا الطريق الغربي[69] .

أولاً:ـ الدوافع والأهداف

أن الدوافع والأهداف التي حفزت المسلمين على تعبئة الجيوش لفتح المغرب في المدة الزمنية التي طالت حتى بلغت ما يقارب من سبعين عاماً ، متنوعة واتسمت بالمبدئية تجاه تمسك المسلمين بدينهن وهي:ـ

1ـ الجهاد في سبيل الله

---

[68]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص35.
[69]ـ المصدر نفسه،ص36.

دافع الجهاد في سبيل الله عند المسلمين هدف سامي ومبدأً مهماً في الدين الإسلامي ، إذ حفز العرب المسلمين للاندفاع من مصر اِتجاه المغرب ، والاندفاع هذا نابع من إيمانهم بأمر الله تعالى ، وامتثالاً لحديث المصطفى (صلى الله عليه وسلم) إذ كانت الأحاديث النبوية تملأ اذهانهم وتقوي إرادتهم وتصعد عزيمتهم واصرارهم على فتح المغرب للإسلام فقد بشرهم الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) بأن الله سيورثهم أملاك كسرى وهرقل ، وأن المغرب يوم ذاك كان ضمن أملاك الدولة البيزنطية .

عن أبي أيوب الأنصاري(رضي الله عنه) قال: بينما رسول الله(صلى الله عليه وسلم) واقف إذ توجه تلقاء المغرب فسلم وأشار بيده فقلت "على من تسلم يا رسول الله) قال(على رجال من أمتي يكونون في هذا المغرب بجزيرة يقال لها الأندلس حيهم مرابط وميتهم شهيد...."[70]

القضاء على الوجود البيزنطي الروماني في المغرب كان يعني للمسلمين تيسير نشر الدعوة الإسلامية ووضع حد لجبروت البيزنطيين الذين يبسطون فيما مضى سلطتهم على عرب شمال الجزيرة العربية أيضاً .

ومما يؤكد دافع الجهاد لدى المسلمين ، ما ذكره ابن عذارى عن زهير بن قيس البلوي بعد أن أعرض

---

[70]ـ ابن حزم، فضائل الأندلس وأهلها،ص3.

عن أملاك أفريقية وابى أن يقيم بها اذ قال: "اِني ما قدمت اِلا للجهاد واخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك"[71] .

ويذكر عن حسان بن النعمان الغساني عندما وضع غنائم أفريقية من ذهب وفضة بين يدي الخليفة الوليد بن عبد الملك ، استكثرها الخليفة وقال له: "جزاك الله خيراً يا حسان" فأجابه قائلاً: "يا أمير المؤمنين اِنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله والخليفة"[72] .

2ـ قرب دمشق عاصمة الدولة العربية الإسلامية من منطقة النفوذ الروماني

لقد كان لموقع دمشق القريب من ساحل البحر والذي كان تحت السيطرة الرومانية ، إذ له تأثيره السلبي مما دفع الخلافة إلى أن تخشى على تأمين سلامة حدود الدولة العربية ، وعليه سعت الخلافة الأموية إلى بناء اسطول بحري عربي ، وتوفير المادة اللازمة لصناعة السفن وبشكل مبكر ومنذ ولاية معاوية بن ابي سفيان لبلاد الشام على عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تعاظمت هذه الرغبة بعد أن آلت الخلافة الإسلامية لهم ، لاسيما وان تلك الرغبة قد تجسدت في موقعة ذات الصواري سنة 34هـ/654م[73] ، التي دارت رحاها

---

[71]ـ البيان المغرب، 22/1.

[72]ـ المصدر نفسه، 39/1.

[73]ـ ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله(ت257هـ)، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم ناصر، القاهرة،ص256.

مقابل زوارة ما بين ساحل طرابلس وتونس[74] ، وهذا المكان زاخر بغابات السرو والأرز المستخدمة في صناعة صواري السفن ، ويبدو أن البيزنطيين أرادوا هذه المعركة ليحولوا بين العرب وبين الحصول على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، لاسيما وأن الأمويين كانوا أصحاب معرفة واطلاع لأخبار تلك البلاد وأصقاعها من خلال صلاتهم التجارية القديمة التي ورثوها من قيادتهم للرحلات السنوية الى جنوب وشمال الجزيرة العربية[75] .

3ـ وجود الروم في الشمال الأفريقي وما يشكلونه من خطر على مصر

كانت مصر وقاعدتها الفسطاط التي أنشأها القائد عمرو بن العاص تمثل الحدود الغربية للدولة العربية الإسلامية ، وكان الوجود الإسلامي هنا لايزال ضعيفاً ، ولأجل الحفاظ على أمن مصر واستقرارها وتثبيت الإسلام في هذا الجزء المهم من الدولة الإسلامية ، اندفع القائد عمرو بن العاص والي مصر آنئذ ، وبدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) نحو برقة سنة 21هـ ، وصالح أهلها على جزية قدرها نحو ثلاثة عشر ألف دينار ، وطرابلس التي فتحها عنوة سنة 22هـ ، لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم الذين كانوا يحكمون المغرب

---

[74]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص59.

[75]ـ محمد سعيد رضا، المغرب والأندلس في العصور الإسلامية، ص59.

الأدنى ، إذ كان يخشى أن يحاولوا استعادت مصر عن هذا الطريق الغربي[76] .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن عمرو بن العاص ، بعد أن سيطر على طرابلس أراد أن يبسط سلطانه إلى ما ورائها من بلاد أفريقية ، وإنه أستأذن الخليفة من ذلك ولكن الخليفة رفض أن يجيبه على طلبه ومنعه من ذلك . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) كان يخشى على المسلمين من أن تنساب جموعهم وتتبعثر في مناطق واسعة يجهلونها ، وهي لم تزل بعد في حاجة الى توطيد نفوذها وسلطانها في البلاد التي فتحوها حديثاً[77] .

4ـ هدف اِستراتيجي يتمثل بفتح القسطنطينية

كان لرغبة العرب المسلمين في فتح القسطنطينية التي امتنعت عليهم من جهة الشرق ، هدف في تطويقها من جهة الغرب على الرغم من المسافات الشاسعة ، ووضعوا استراتيجية تقوم على غزو ممتلكات الامبراطورية البيزنطية من الشمال الأفريقي وغرب البحر المتوسط وذلك بالسيطرة على أهم الجزر وسط البحر المتوسط ،وأهمها صقلية وجنوب ايطاليا وسواحل البحر الأدرياتيكي[78] .

ويؤكد تلك الرغبة عزم القائد موسى بن نصير بعد أن استكمل فتح الأندلس أَن" يأتي المشرق من ناحية

---

(76)ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص34.
(77)ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص36.
(78)ـ محمد سعيد، المصدر السابق،57.

القسطنطينية ويتجاوز الى الشام دروب الأندلس ويخوض إليه ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستصحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة في دمشق"[79] .

ويبدو أَن أباطرة الروم البيزنطيين قد أدركوا هدف العرب المسلمين ، بدليل انهم بذلوا جهوداً كبيرة لحماية أجزاء امبراطوريتهم الغربية ، لدرجة أن الإمبراطور قسطنطين الثاني خليفة هرقل ، اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهي ترك عاصمة القسطنطينية سنة42هـ/662م والإقامة في روما وصقلية[80] .

ثانياً:ــ مراحل الفتح

لقد مرت عملية فتح المغرب العربي بمرحلتين أساسيتين هما:ــ

المرحلة الأولى:ــ مرحلة استكشافية استطلاعية وتمتد من(22ــ50هـ/642ــ670م)

المرحلة الثانية:ــ مرحلة الفتح المنظم وتمتد من(50ــ90هـ/670ــ709م)

المرحلة الأولى:ــ المرحلة الاستكشافية الاستطلاعية

[79]ــ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،255/4.
[80]ــ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص35.

يمكن أن نسميها مرحلة البعوث والسرايا والحملات الاستطلاعية التي تبدأ بجهود عمرو بن العاص والي مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) حين توجه عمرو بن العاص بنظره نحو اقليم برقة لتأمين قاعدة الفسطاط وتأمين الوجود العربي الإسلامي في مصر واقرار الإسلام بها ، لأن وجود الروم البيزنطيين في هذا الجزء من أفريقيا كان يهدد الوجود الإسلامي ، وينشط الهدف البيزنطي الرامي إلى استرجاع مصر إلى سيطرتهم عن طريق اقليم برقة وطرابلس ، لأن برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية أفريقية البيزنطية ، واصبحتا اقليمين تابعين لمصر منذ عهد الإمبراطور موريس (582–602م)[81] . ولذلك ارسل عمرو بن العاص أول حملة استكشافية استطلاعية الى برقة بقيادة ابن خالته القائد عقبة بن نافع الفهري ، فجاءه بأخبار مشجعة عن طبيعة المنطقة ومكوناتها الاجتماعية من خلال قبيلة لواتة[82] لذا قاد عمرو بن العاص حملة بنفسه لفتح برقة سنة21هـ ودون الاستئذان من الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) فتمكن من فتحها بعد أن صالح أهلها على جزية يدفعونها مقدارها ثلاثة عشر الف دينار[83] ، ومن برقة تجهز عمرو بن العاص لغرض فتح طرابلس ، فتطلب الأمر منه تجهيز قوتين ، قوة تأخذ الطريق الساحلي ، وهدفها مدينة طرابلس وما يليها من المدن ، وعهد

---

(81)ـ مؤنس، فتح العرب للمغرب،ص50.

(82)ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،1/1.

(83)ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص229. البلاذري، فتوح البلدان،ص225.

بقيادتها الى القائد عقبة بن نافع الفهري . وقوة فرعية هدفها المناطق الصحراوية الجنوبية واحتفظ بقيادتها لنفسه . وكان الهدف من هاتين القوتين هو لتأمين الساحل من الخطر الروماني البيزنطي وتأمين المناطق الداخلية لغرض منع أي محاولة أو أي عمل تقوم به القبائل الصحراوية يعيق من خلاله تقدم القوات الإسلامية .

وهكذا سارت العمليات العسكرية في المناطق الساحلية والمناطق الجنوبية متزامنة مع بعضها. فقد تمكن عمرو بن العاص من فتح مدينة سرت وطرابلس وصبراته[84] . وتمكن عقبة بن نافع من فتح مناطق فزان وزويلة في الجنوب ، يقول البلاذري: "ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه"[85] .

وجه عمرو بن العاص قوة نحو الداخل أسند قيادتها إلى نسر بن ابي أرطاة لإخضاع جبل نفوسة[86] ، ثم مدينة ودان ، إذ أمن أهلها سنة 23هـ/643م[87] . لكن فعاليات عمرو بن العاص العسكرية هذه في هذا

---

[84]ــ زغلول، تاريخ المغرب العربي،137/1.

[85]ــ فتوح البلدان،266.

[86]ــ ابن أبي دينار: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم(ت1092هـ)، المؤنس في اخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد سمام، المكتبة العتيقة، تونس،1967م،ص26.

[87]ــ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص54.

الاقليم قد توقفت بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه) الذي لم يشأ أن يجازف بأرواح المسلمين في تلك المجاهل[88] .

وبذلك يكون عمرو بن العاص قد عرف قادة الفتح من بعده بمدى أهمية القرب من الساحل ، ومبلغ خطورة التوغل في الداخل ، والفائدة من وراء كسب ولاء القبائل المغربية أو ضمان حيادها على الأقل لأحكام السيطرة على السواحل[89] . ونبه إلى حقيقة أن عملية فتح المغرب العربي تتطلب امدادات متواصلة ، وجهود كثيفة ، وقاعدة أمنية تحمي تلك الإمدادات وتؤمن لها احتياجاتها ، وهذا مالم يتم تأمينه في ذلك الوقت ، إذ لم تكن مصر قد استوثقت أمورها بعد ، فلم يزل الخطر الروماني البيزنطي قائماً ، محاولين استعادت نفوذهم وسيطرتهم عليها[90] .

لأجل تلك الأسباب عاد عمرو بن العاص إلى الفسطاط ليشرف على تنظيم الادارة فيها وتحصينها وتثبيت قوة دعائمها مما يجعلها مركزاً مهماً لقيادة العمليات العسكرية لإتمام فتح المغرب للإسلام ، وعندها كان عمرو بن العاص قد ترك عقبة بن نافع على رأس حامية عسكرية في مدينة برقة[91] . وقد نجح عقبة في

---

[88]ـ لقبال: موسى، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرب حتى انتهاء ثورات الخوارج، نشر مطبعة البعث بقسنطينة،ص19.

[89]ـ زغلول، المصدر السابق،143/1.

[90]ـ سيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير،152/2.

[91]ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان،1/

كسب ود كثير من أهالي البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة فدخلوا في الإسلام[92] .

وأثبت عقبة كفاية عالية في ادارة تلك القاعدة وتقديمه الخدمات للحملات الاستطلاعية التي أخذت تتقاطر على شمال أفريقية من مصر بعد استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) .

بعد أن تولى عثمان بن عفان((رضي الله عنه)) سُدة الخلافة ، عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 24هـ ، ومنذ ذلك الحين بدأت الأنظار تتجه نت جديد نحو بلاد المغرب العربي ، فكان عبد الله بن سعد يبعث المسلمين في سرايا وبعوث لغرض الاستطلاع وجس مواطن العدو وامكاناته .

وعندما كانت تلك السرايا تأتي بأخبار مشجعة قرر أبن سرح أخذ موافقة الخليفة عثمان بن عفان((رضي الله عنه)) لأستأناف الحملات العسكرية لإتمام الفتح ونشر الإسلام ، فجاءت موافقة الخلافة الإسلامية مع اِعداد جيش كبير ، إذ جهزه بألف بعير يحمل عليها ضعاف المسلمين ، وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين[93] . وشارك في هذا الجيش مشاهير رجال العرب وأبناء الصحابة والقبائل المحيطة بالمدينة

---

[92]ــ سيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس،ص29.

[93]ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 9/1.

من الحجاز حتى بلغت الحملة العشرين ألف مقاتل[94] . وعرفت هذه الحملة باسم "حملة العبادلة السبعة"[95] .

خرج جيش العبادلة السبعة من مصر سنة27هـ/647م وعلى قيادته عبد الله بن سعد وهدفه مدينة سبيطلة التي يتخذها الروم البيزنطيين عاصمة لهم ويحكمها يومئذ جريجوريوس(جرجير) الذي كان قد خلع طاعة الإمبراطور هرقل واستقل بحكم المغرب العربي[96] .

وفي مدينة برقة التي كانت قاعدة أفريقية ومنطلق الحملات نحو المغرب ، حامية يقودها عقبة بن نافع الفهري ، التقت حملة العبادلة بحامية برقة ، إذ واصلت القوات الإسلامية زحفها لاستكشاف المناطق المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الحملة[97] . وفي منطقة قمونية عسكر الجيش العربي الإسلامي ، وعندما بدأت مفاوضات بين القائد عبد الله بن ابي سرح وبين

---

[94]ـ الدباغ، معالن الأيمان،33/1.

[95]ـ وهم: ((عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن زيد بن الخطاب وعبد الله بن أبي بكر ،اضافة لقائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. أبو العرب: محمد بن أحمد بن تميم القيرواني(ت333هـ) طبقات علماء أفريقية وتونس، تقديم وتحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر،1968م،ص73–74–75.

[96]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص56.

[97]ـ ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن بن أبي الكرم(ت630هـ)، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت،1987م،ج44/3.

جرجير التي خضعت مناطق الشمال الأفريقي لسيطرته والذي رفض الخضوع لمطالب المسلمين

ودفع الجزية معتداً بقواته التي بلغ تعدادها المائة والعشرين الف مقاتل[98] . وجرت مناوشات بين الطرفين سنة 28هـ/648م في موضع اطلق عليه أسم عقوبة[99] ، استمرت المناوشات أياماً تمكن عبد الله بن أبي سرح من اكتشاف نقاط الضعف في قوات جرجير فعدل خطته العسكرية ، إذ قام بهجوم شديد اخترق صفوف قوات جرجير واجبرها على التراجع ، وكان من نتيجة ذلك مقتل القائد جرجير ومعظم قادته وانهزم من تبقى منهم في اتجاهات مختلفة[100] . وتمكنت قوة من فرسان المسلمين من مطاردة المنهزمين ومنعهم من دخول مدينة سبيطلة والاعتصام بها ، وبذلك جردت المدينة الحصينة من المدافعين عنها وسقطت بسهولة في معركة ثانية[101] .

لقد ادى سقوط مدينة سبيطلة بيد المسلمين إلى انهيار الحكم البيزنطي في معظم المناطق التي كانت تحت نفوذ جرجير[102] . وتوالت انتصارات المسلمين في مواقع متعددة مما دفع الروم البيزنطيين الى اللجوء الى الحصون والمعاقل[103] ، أدى بالنتيجة إلى اذعان

[98]ـ المصدر نفسه،89/3.
[99]ـ البلاذري، فتوح البلدان،228.
[100]ـ المصدر نفسه والصفحة.
[101]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص57.
[102]ـ المصدر نفسه،ص58.
[103]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،12/1.

رؤسائهم لمطالب المسلمين بدفع مبالغ كبيرة بلغت الثلاثمائة قنطار من الذهب[104] .

استغرقت هذه الحملة تقريباً الخمسة عشر شهراً ، انسحب بعدها أبن أبي سرح عائداً إلى الفسطاط ، إذ يبدو أنه وضع اعتبارات خاصة لعودته الى مصر ، كأن تكون تحركات القوات الرومانية في البحر المتوسط والمدن الحصينة ، والمدة التي قضاها في تلك الحملة والإنهاك الذي اصاب قواته[105] ، دفعته الى اعادة التنظيم بعد أن أخذ على الروم العهد والجزية التي أخذت منهم .

ومما يؤخذ على اتفاق أبن أبي سرح هو عدم تنفيذه من قبل الروم وذلك لكون أبن أبي سرح قد غادر المغرب من غير أن يتخذ فيها قاعدة متقدمة للقوات العربية الإسلامية أو يترك حاميات في المناطق والمدن التي فتحت ، أو في تلك التي دخلت في أمانه[106] .

وعلى الرغم من ذلك الا أن تلك الحملة تعد أهم الحملات ، اذ أذلت الروم وساعدت على دخول أعداد كبيرة من زعماء قبائل البربر الى الإسلام . وآخر الحملات التي قادها عبد الله بن أبي سرح كانت معركة ذات الصواري البحرية ، سنة34هـ/654م ضد اسطول الروم البيزنطيين في مياه البحر المتوسط ، إذ تمكن الأسطول العربي الإسلامي من تدمير الأسطول

---

[104]ـ البلاذري، المصدر السابق،ص288.

[105]ـ يرويها الدباغ في سنة وشهرين. معالم الأيمان،42/1.

[106]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص246ـ247.

الروماني البيزنطي بقيادة قسطنطين بن هرقل ، ما بين ساحل طرابلس وتونس[107] .

وبسبب أحداث الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة عثما بن عان((رضي الله عنه)) ضعفت همم الرجال في مواصلة عمليات فتح المغرب العربي حتى خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ/641م[108] .

هذا وقد اعاد معاوية بن أبي سفيان القائد عمرو بن العاص الى ولاية الفسطاط واستمر والياً عليها حتى وفاته سنة 43هـ/663م ، لكن لم يسجل أي نشاط خلال الولاية الثانية ، وربما يعود لكبر سنه وعدم مقدرته على قيادة الحملات والجيوش ومواصلة العمليات العسكرية .

وبعد وفاة عمرو بن العاص ، فصلت أفريقية عن الفسطاط بعد أن كانت ملحقة بها أدارياً ، وأصبحت أفريقية مرتبطة بمركز الخلافة في دمشق مباشرة ، اذ تولى أمرها معاوية بن حديج الكندي[109] .

خرج معاوية بن حديج الكندي سنة 45هـ/665م ، على رأس جيش قوامه عشرة الآف مقاتل[110] ، اضافة الى القوة التي كانت في برقة[111] ، وقد سلك الطريق الساحلي مروراً بمدينة طرابلس وانتهى الى الموضع الذي نزله عبد الله بن أبي سرح سنة 28هـ في

---

[107]ـ زغلول، تاريخ المغرب العربي، 163/1.
[108]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 47/2ـ49.
[109]ـ لقبال، المغرب الإسلامي، ص22.
[110]ـ ابن عذارى، البيان المغرب، 16/1.
[111]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص61.

منطقة قمونية[112] وفي هذا المكان دارت معركة بين الجيش العربي الإسلامي والقوات الرومانية البيزنطية بقيادة نقفور التي عدتها ثلاثين ألف مقاتل واسفرت عن هزيمتهم واعتصامهم بمدينة سوسة[113] . وبعد هذا الانتصار تقدم معاوية بن حديج الكندي شمالاً فعسكر في موضع مرتفع يقال له القرن[114] . ومن معسكر القرن بدأ معاوية بن حديج نشاطه بتجهيز الحملات ضد الروم البيزنطيين وكانت بالآتي:ـ

الأولى:ـ وهدفها مدينة سوسة اذ اعتصمت القوات البيزنطية بقيادة نقفور ، وكان يقودها عبد الله بن الزبير[115] .

الثانية:ـ سرية بقيادة عبد الملك بن مروان لفتح مصر جلولاء[116] .

الثالثة:ـ حملة قادها عقبة بن نافع الفهري للتوغل جنوباً في المناطق الصحراوية[117] .

واقتحمت قوات رويفع بن ثابت جزيرة جربه ، وأغارت قوات عبد الله بن قيس الفزاري على جزيرة صقلية فنال من سرقوسة كبرى مدن الجزيرة ورجع سالماً[118] .

---

[112]ـ الدباغ، معالم الأيمان،43/1.
[113]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،16/1.
[114]ـ نسبة الى جبل القرن الذي بني عليه المعسكر .ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص461.
[115]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،16/1.
[116]ـ ابن عبد الحكم، المصدر السابق،ص261.
[117]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص62.

وكلل معاوية بن حديج الكندي جهوده العسكرية ببعض الخدمات العمرانية التي عززت من استقراره العسكري هناك ، اذ عُرف عنه أنه كان أول من اتخذ قاعدة عسكرية ثابتة لقواته في اقليم قمونية[119] الذي اطلق عليه أسم القيروان[120] ، وحفر بجواره آباراً يشرب منها الجند وسميت آبار حديج[121] .

ويكون ابن حديج بذلك أول قائد عربي إسلامي في أفريقية اختار قيرواناً ينزل فيه الجند وحريمهم وذراريهم واثقالهم ، ويضربون فيه خيامهم ، ويجتمعون فيه كلما انتهت الحرب للإصلاح شؤونهم واستجماع قواهم وتضميد جراحهم وتجديد اسلحتهم أ ينزلون فيه ريثما يرجعون الى الشرق[122] .

ويحق القول أن ستراتيجية ابن حديج الكندي الجديدة تعد ارهاصاً حقيقياً لما تم فعلاً في عصر عقبة بن نافع الفهري[123] .

ويذكر أن سكان المغرب من البربر قد خلدوا الى الراحة والهدوء والانقياد وطواعيتهم للسلطة على عهد ابن حديج ، حتى عصر الخليفة هشام بن عبد الملك ، يقول ابن الأثير: "فسكن الناس وأطاعوا وعادوا الى

---

(118)ـ ابن عبد الحكم ،المصدر السابق،ص261.
(119)ـ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،16/1-18.
(120)ـ مؤنس، فتح العرب للمغرب،ص120.
(121)ـ عبد الوهاب: حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، الناشر مكتبة المنار، تونس،1964م،ج45/1.
(122)ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص66.
(123)ـ عبد الوهاب، المصدر السابق،45/1.

مصر ثم لم يزل أهل أفريقية من اطوع أهل البلدان وأسمعهم الى زمان هشام"[124] .

هذا ولم يتح لمعاوية بن حديج أن يتم فتح أفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة 48هـ/669م وقيل 50هـ/670م ، وولى على أفريقية عقبة بن نافع الفهري[125] . وبتولية عقبة على أفريقية يبدأ طور الفتح المنظم للمغرب العربي .

المرحلة الثانية: الجيوش المنتظمة

لقد كانت ولاية عقبة بن نافع لأفريقية سنة 50هـ/670م حداً فاصلاً بين عهدين[126] ، الأول بدأ بجهود عمرو بن العاص سنة 22هـ/643م وانتهى بولاية معاوية بن حديج الكندي ، وهي الفترة التي اطلق عليها عصر أو فترة الاستكشاف[127] . والثاني ويبدأ بولاية عقبة بن نافع سنة50هـ بعد عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين عند ذاك وافاضلهم ، فقد ولد قبل وفاة الرسول ((صلى الله عليه وسلم)) بعام واحد ، وكان أعرف الناس بأحوال بلاد المغرب ، اذ كان قوي الأيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، فكان يتخذ من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام زيادة على ذلك كان قائداً قديراً ، اسهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى

---

[124]ـ الكامل في التاريخ،

[125]ـ سيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس،ص33.

[126]ـخليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص64.

[127]ـ المصدر نفسه والصفحة.

لأفريقية[128]، ولذلك كان على دراية عالية بأحوال أفريقية ومسالكها ، ولا سيما في ليبيا وصحراواتها ، ولهذا سلك بجيوش المسلمين طريق الصحراء عبر الواحات وتجنب الطريق الساحلي الذي سلكه أغلب القادة الذين سبقوه ، والذي أصبح يعرف بالطريق الأعظم[129]، وبـ(الجادة)[130] .

ولكي يتمكن القائد عقبة بن نافع من انجاز مهماته وتحقيق أهدافه ، زود بعشرة آلاف مقاتل[131] زيادة على القوات المرابطة في مدينة برقة والتي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين البربر الذين حسن إسلامهم وتوثقت طاعتهم[132] .

لقد بدأت الحملة زحفها باتجاه المغرب ، فدانت لها القبائل المغربية القاطنة في الصحراء الليبية مثل لواتة ومزاته ، وتمكنت جيوش عقبة من السيطرة على مدينة غدامس وقفصة ، وتوجه بقواته نحو اقليم قسطيلية وأذعنت له أهم مدنها (توزر)[133]

وعندما توقف عن التوغل عبر الصحراء ، إذ رجع مصعداً الى اقليم الهضبة الوسطى حتى وصل الى

---

(128)ـ سيد عبد العزيز، المصدر السابق،ص33.
(129)ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص262.
(130)ـ البكري: أبو عبيد الله(ت487هـ) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، باريس، 1911م،ص10.
(131)ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص230.
(132)ـ ابن الأثير، المصدر السابق،465/3.
(133)ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص262–263.

معسكر القرن الذي انشأه معاوية بن حديج الكندي[134] من قبل ، ولم يعجبه ذلك المعسكر ، زيادة الى أنه اراد توطيد نفوذ المسلمين في ذلك الجزء المهم من الدولة الإسلامية اذ تميز عقبة بن نافع عن من سبقه من القادة المسلمين الذين جاؤوا فاتحين للمغرب ، في أنه كان يرى أن تحقيق الهدف من هذا الفتح لن يتم دون الاستقرار بين سكان تلك المناطق المفتوحة ، إذ كان يقول: "أن أفريقية اذا دخلها اِنام أجابوه الى الإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام الى آخر الدهر..."[135] لذلك نراه يتوجه على الفور لبناء قاعدة ثابتة ، يستقر فيها المسلمون بكل أصنافهم ومعداتهم وحاجاتهم . اذ تجسدت هذه القاعدة بمدينة القيروان .

بناء مدينة القيروان

لقد استحسن جنود عقبة بن نافع رأيه في اقامة معسكر لهم أو مدينة تأويهم وتحمسوا للفكرة ، وأخذ عقبة يستطلع آراءهم لاختيار الموضع الذي يبني فيه العسكر ،اذ اختار هو مكاناً وسطاً بين الساحل والداخل بحيث يكون قريباً من المرعى ولا يكون قريباً من البحر فيصبح في مرمى الرومان . ولا يبتعد كثيراً في العمق فيكون عرضة لتحركات القبائل الصحراوية ذات

---

[134]ـ سيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس،ص34.

[135]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 19/1.

الأهواء المتقلبة[136] .وكان يقول لأصحابه: "أنا اخترت هذا الموضع لئلا تطرقه مراكب الروم فتهلكه وهو وسط البلاد"[137] .

ويبدو أن عقبة كان لديه رأي آخر في اختياره لهذا الموضع ،اذ أراد أن يكون قريباً من منطقة المراعي من أجل تربية المواشي والأبل[138].

وهذا الرأي يمثل امتداداً للفكر العربي الإسلامي في مجال اختيار مواضع المدن ،اذ سبقه في ذلك الرأي ،القائد عقبة بن غزوان حينما عزم على بناء مدينة البصرة ،اذ أمره الخليفة عمر بن الخطاب((رضي الله عنه)) على اختيار موضع قريب من المرعى ،لأن عدتهم الأبل والأغنام وهذا لا يعد فكراً رعوياً كما يردده المستشرقون اذ ينكرون على العرب تقدم فكرهم العمراني . والقيروان تعد أولى المدن التي بنيت في العصر الأموي .

هذا وقد وصف المؤرخون موقع القيروان ،اذ اشار البكري أنها: "في بساط من الأرض مديد من الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة وفي القبلة بحر سفاقس وأقربها منها البحر الشرقي بينهما وبينه مسيرة يوم ،وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها

---

[136]ـ مؤنس، فتح العرب للمغرب،ص143ـ144.
[137]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص269.
[138]ـ ابن عذارى المراكشي، المصدر نفسه،20/1ـ21.

وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم ،وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف"[139] .

كان الموضع يكتظ بالأشجار المتشابكة وتكثر فيها السباع والهوام وباقي الحيوانات البرية[140] .

هذا وجاءت خطط القيروان على وفق خطط المدن التي سبقتها وهي البصرة والكوفة والفسطاط وأول شيء اختطه عقبة بن نافع هو دار الأمارة ثم اختط الى جانبه المسجد الجامع[141] ،ويذكر أن الذي حمل عقبة على اختياره مكان المسجد ودار الامارة وجود بئر ماء عذبة بعرف بئر((أم عياض)) وقد جعلها وسطاً بين البنائين[142] .

أما خطط الأهالي فقد وزعت بذلك الأساس القبلي ،وهو استنتاج توافقه طبيعة المرحلة التاريخية وطبيعة التكوين الاجتماعي للجيوش المرافقة للقائد عقبة بن نافع الفهري[143] .

وعمرت مدينة القيروان بمرور الزمن بأنواع الأبنية والمنشآت ،وشد الناس اليها الرحال فسكنوها

---

[139]ـ المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص24.
[140]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص230.
[141]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،19/1
[142]ـ عبد الوهاب، ورقات من الحضارة العربية بأفريقية التونسية،48/1.
[143]ـ السامرائي: عامر حميد، الصلات الحضارية بين مدن مشارقية ومدن مغاربية دراسة تاريخية مقارنة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الوقف السني، بغداد،2009م،ص24.

،ودامت حركة البناء فيها ما يقارب من الخمس سنوات حتى اكتملت عمارتها سنة 55هـ/674م[144] . ولأجل تأمين الحماية لها وهو حال المدن العربية الإسلامية احيطت بسور محكم مبني من الطين .

لقد كان بناء مدينة القيروان حدثاً مهماً في تاريخ أفريقية والمغرب بعامة لأنها صارت ولاية جديدة مستقلة هي ولاية أفريقية وعاصمة المغرب بعامة ،وقاعدة تنطلق منها الجيوش والحملات العسكرية لنشر الإسلام في الأراضي المغربية عامة ،واصبحت مقراً للولاة ومسكناً لقبائل العرب والبربر الذين دخلوا الإسلام وحسن اسلامهم وتعلموا اصول الشريعة الإسلامية، يقول ابن الأثير: "ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ،وآمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها"[145] .

وللقيروان دور كبير وواضح في نشر الإسلام ،فشيوخها من أبناء الصحابة ومن التابعين ، وكانوا خير دعاة وخير معين . وهكذا قدر لمدينة القيروان ومنذ البداية أن تؤدي دوراً يشمل النواحي العسكرية والسياسية والحضارية والاجتماعية[146] .

دور عقبة في عمليات الفتح

[144]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،366/3.

[145]ـ الكامل في النتاريخ،235/3.

[146]ـ المطوي: محمد العروسي، سيرة القيروان، الدار العربية، تونس،1981م،ص17.

على الرغم من انشغال القائد عقبة بن نافع في بناء مدينة القيروان ،الا أنه استمر في نشاطه العسكري وقيادة الحملات وارسال البعوث الى الأطراف لبث الرعب في نفوس الأعداء خرقاً لهم عن مضايقة المسلمين المنهمكين في عملية البناء والعمارة .

وفي سنة 55هـ/675م ارتأت الخلافة اتباع سياسة جديدة في بلاد المغرب تقوم على اساس كسب ولاء القبائل المغربية ونشر الإسلام بينهم ،وتقوم تلك السياسة في اساسها على اعتماد الأقناع واللين ،وربما كان عقبة بن نافع عسكرياً من الطراز الأول وصارماً شديداً في سياسته على حد قول معظم المؤرخين ،فقد تطلبت المرحلة الجديدة والياً سياسياً يمتلك قدراً عالياً من تلك المرونة دون التفريط بأهداف الدولة المركزية[147] .ولهذا السبب استدعى الخليفة القائد عقبة بن نافع وعين مكانه القائد أبا المهاجر دينار .

ثالثاً:ــ العوامل التي ساعدت على فتح المغرب

على الرغم من أن المدة الزمنية الطويلة التي استغرقت لإتمام فتح المغرب للإسلام التي تقرب من الثمانين عاماً ،الا أن هناك من العوامل التي كانت عوناً للمقاتلة المسلمين في اتمام عملياتهم العسكرية وانجاحها وتحرير المغرب من السيطرة الرومانية البيزنطية أولاً ومن ثم نشر الإسلام بين قبائله ثانياً .

ومن هذه العوامل:ــ

[147]ــ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص69.

1ـ الخلافات والصراعات بين القادة والأمراء البيزنطيين

لقد حدثت الاضطرابات وكثرة المؤامرات عقب موت الإمبراطور جستنيان بين أركان الإمبراطورية البيزنطية المحتلة لبلاد المغرب العربي ،فوقعت الصدامات المحتدمة بين قادة المناطق العسكرية ورؤساء المقاطعات الإدارية ،اذ شاعت بينهم الدسائس والمؤامرات وعمت الاضطرابات وكثرت الثورات ،منها مؤامرة الضباط ضد سولومون القائد الأعلى في عيد الفصح من سنة 536م ،وثورة موريطانيا بقيادة ملكها كرمول التي لم تخمد الا بعد مقتل قائدها سنة 578م ،وثورة الأمير النوميدي جوكارطا ضد اساليب المرابين الرومان القاسية والجشعة على الفقراء ،وقد استمرت لمدة طويلة وكانت تمثل استمراراً لكفاح المغاربة ضد البيزنطيين الذين قاموا بإنشاء تحصينات متعددة في المراكز التي كانوا يحتلونها بما في ذلك مدينة سبته[148].

2ـ تمزق وحدة قبائل المغرب سياسياً ودينياً

لم يعرف عن القبائل المغربية أنها توحدت تحت قيادة واحدة ،ولم تسعى الى توحيد صفوفها، اذ كانت العصبية القبلية وما تفرزه من نزاعات تنخر في صفوف تلك القبائل وتضعف من قوتها مما جعلها سهلة في اخضاعها أو خلق التصادم فيما بينها ، وأنها لم تلتف

---

[148]ـ حركات: ابراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، دار البيضاء،1965م،ج73/1ـ74.

على ديانة واحدة فقد شتتها المعتقدات المتنافرة من مسيحية ويهودية ومجوسية ووثنية في مختلف اشكالها ،فالرومان لم يستطيعوا استمالة قبائل المغرب نحو الديانة المسيحية[149] ، كما لم يتركوا في أوساطهم آثاراً اجتماعية ،حتى أن وجودهم السياسي والاجتماعي يكاد لا يتعدى الشريط الساحلي ،وبذلك كلما ابتعدنا عن قرطاجنة نجد الأثر الروماني يتضائل عدا بعض المراكز المحددة ،وقد استغل العرب الفاتحون هذه الناحية ولا سيما النزاع والتخاصم بين البرانس والبتر اذ استطاع بعض الولاة من تحقيق نتائج عسكرية كبيرة في حروبه مع الكاهنة وأخر مع كسيلة الأوربي تحت هذا الغطاء[150] .

3ـ أساليب الاضطهاد والتعسف للسكان المغاربة من قبل قوات الاحتلال ادت الى أن تتطلع القبائل المغربية الى الحرية والاستقرار والقضاء على الوجود البيزنطي وما حمله من استغلال اقتصادي وبشري هلك به الحرث والنسل الذين استحوذوا على الأراضي الزراعية ،دفع سكان البلاد الى مقاومة البيزنطيين المحتلين وناصبوهم العداء الشديد[151] ،ومما زاد الطين بلة أن البيزنطيين حاربوا اليهود حرباً دينية عنيفة ،فتألبت عليهم مختلف عناصر السكان ،اذ رفضوا في كثير من الأحيان الخضوع لسلطة الدولة ،وقد عبروا عن ذلك برفض بعضهم مساندة البيزنطيين على العرب أبان الفتوحات

[149]ـ المصدر نفسه،74/1ـ75.

[150]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب،ص101,

[151]ـ المصدر نفسه

الإسلامية ،كما هو حال موقف بعضهم من صنهاجة وكتامة[152] .

4ـ القوة والكفاية والمقدرة العسكرية لقادة الفتح

أن معظم القادة المسلمين الذين تحملوا مسؤولية قيادة الحملات العسكرية في الشمال الأفريقي كانوا على مستوى عالٍ من الكفاية والخبرة بأمور الشمال الأفريقي ،وعلى اطلاع واسع بأحواله الجغرافية والبشرية وحتى الطبائع والعادات الاجتماعية .

فعقبة بن نافع كان قد ظل ما يزيد على الربع قرن مقاتلاً في أفريقية والمغرب بعامة وكان مجاهداً صابراً جلداً محباً لله ولرسوله الكريم حتى قبل أن يتولى القيادة وبعدها ولاية أفريقية .

وأن السياسة المرنة التي اتبعها بعض القادة مع قبائل المغرب قد استمالت نحوهم رؤساء تلك القبائل وشيوخها وافرادها وادخلتهم سريعاً الى الدين الإسلامي ،حتى أصبحوا عدة الجيش الإسلامي في المغرب .

كذلك التشابه في بعض الصفات والعادات العربية الاجتماعية والمغربية والنابعة من معين واحد ثم سرعة تقبلهم للإسلام والعروبة ،كلها كانت معيناً وعضداً لمؤازرة القادة في تذليل الصعاب في عملياتهم العسكرية ،حتى تحقق لهم ما رسمته الخلافة الإسلامية ،في ضم المغرب بعامة الى حضيرة الإسلام ،فكان لهم ما أرادوا بأمر من الله عز وجل .

---

[152]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب،ص102.

الفصل الثالث

عصر الولاة

أولاً:ـ ولاية أبي المهاجر دينار

ثانياُ:ـ ولاية عقبة بن نافع الفهري الثانية

ثالثاً:ـ ولاية زهير بن قيس البلوي

رابعاً:ـ ولاية حسان بن النعمان الغساني وجهوده الإدارية

خامساً:ـ ولاية موسى بن نصير

لقد كان عصر الولاة بالمغرب العربي الكبير أطول من حيث اِمتداده الزمني ،اذ دام هذا العصر منذ نهاية عملية الفتح من بداية الربع الأخير من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي وقد كان للعباسيين فيه تدخل مباشر لا سيما في منطقة المغرب الأدنى .

امضى الأمويون حقبة مهمة من هذا العصر ،اذ كانت سلطتهم فيها سلطة محترمة ومتمكنة من ادارة الأمور الادارية والسياسية والاقتصادية ،وما أدل على ذلك اِلا قلة عدد الولاة بالقياس الى كثرتهم في الأندلس . هذا وقد تمثل حكم الولاة بالعمل في ميدانين: الأول تمثل بمواصلة العمليات العسكرية الجهادية . والثاني تمثل بالحرص الشديد على نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية .

أولاً:ـ ولاية أبو المهاجر دينار

هو مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري ،والي مصر ،اذ تولى قيادة الجيش من الشمال الأفريقي بعد عزل القائد عقبة بن نافع الفهري ،وذلك سنة55هـ/675م ،وافتتح عمله باتخاذه قاعدة جديدة تسمى(تكرور)[153] ،بدلاً عن مدينة القيروان التي شادها عقبة بن نافع .

لقد بنيت تلك القاعدة في جبل(وسلات) وهي مسكن قبيلة مزاته المغربية[154] . وربما كان هدف أبي المهاجر اتخاذه قاعدة جديدة لولايته وسط القبائل المغربية ،ليؤكد لهذه القبائل أن اتجاهاً سياسياً جديداً سيقوم على اساس التقرب من السكان الأصليين وكسبهم للإسلام باللين والحكمة والحسنى وربط اواصر الحلف معهم ضد الروم الدخلاء .

---

[153]ـ يذكرها الدباغ في كتابه معالم الأيمان باسم(تاكرونة) أو(تا كيروان) 11/1.

[154]ـ عبد الوهاب ،ورقات من الحضارة العربية،50/1.

ويعد أول من طبق سياسة الاستقرار بها وإنهاء العمل العسكري ،فأقام كامل فصول السنة في أفريقيا .ويرى موسى لقبال أن هذه السياسة لم تكن بالجديدة ،اذ أن بذورها قد بدأت بمعسكر القرن ،وطبقت اساساً في بناء القيروان التي تعد أول قاعدة للاستقرار والحكم ،وان عقبة قد عزل ولذلك لم تتضح سياسته بعد[155] .

هذا وكانت سياسة أبي المهاجر دينار تنصب على هدفين رئيسيين:ـ

1ـ كسب ود قبائل البربر ،ودعوتهم الى الإسلام والاعتماد عليهم في اجتثاث معاقل الروم البيزنطيين ،ولا غرو في أن إسلام زعيم قبيلة أوربة المغربية المدعوا كسيلة ،كان حدثاً مهماً له معناه وأثره البعيد في نجاح القوات العربية الإسلامية من تأدية واجبها الأسمى من حملاتها العسكرية وهو نشر الإسلام ،أما تأثيره ،فكان كسيلة لم يُسلِم بمفرده وإنما أسلم معه نفر كثير من قومه إن لم نقل قبائل أوربة بعامة[156] .

2ـ طرد الروم وتحرير عموم المغرب من سيطرتهم ،اذ عمل على مواجهة مواقعهم المتبقية في قرطاجنة ومدينة فحص تونس ،وعمل على بقاء معسكر قريب من المدينة ليمارس نشاطه ضدهم ،وتوجه بالقائد حنش بن عبد الله الصنعاني على رأس جيش لفتح جزيرة شريك ثم عقد صلحاً مع الروم "فالأرجح أن يكون شرط

---

[155]ـ المغرب الأسلامي،ص44.

[156]ـ خليل السامرائي، المغرب العربي،ص71.

على الروم أن يحتفظ المسلمون بما استولوا عليه من مناطق حول شبه جزيرة شريك"[157] .

وعندما نريد تقييم جهود ابي المهاجر دينار ،نعترف لا محالة بأهمية دوره في تقدم حركة الفتح ونشر الإسلام بين سكان المجتمع المغربي ،لاسيما المغرب الأوسط الذي يعد أول قائد مسلم اوغل فيه ،حتى أصبح سكانه حلفاء يوثق بهم . وقد نجح في تحطيم مقاومة الروم البيزنطيين واقتحام مدينة قرطاجنة . "ولو لم يكن هذا القائد سياسياً متسامحاً وذا هدف محدد لما استطاع أن يحصل على هذه النتائج الطيبة الثمار...."[158] .

ثانياً:ـ ولاية عقبة بن نافع الفهري الثانية

تولى القائد عقبة بن نافع الولاية الثانية لأفريقية سنة 62هـ/681م في خلافة يزيد بن معاوية . وعندما وصل الى أفريقية هجر قاعدة ابي المهاجر المسماة (تكرور) ،واعادة تجديد ما خرب من مباني مدينة القيروان ،وعمل على تنظيم شؤون الولاية ،واقرار الأمور فيها ،وعندما تم له ذلك عزم على القيام بحملته المشهورة في بلاد المغرب ،اذ استخلف زهير بن قيس

---

(157)ـ لقبال، المغرب الأسلامي،ص49.

(158)ـ المصدر نفسه

البلوي وعمر بن علي القرشي على مدينة القيروان[159] ،تدعمهما حامية عربية كبيرة العدد لحراسة المدينة والدفاع عنها[160] ،وقد أكد عقبة مهمته الجهادية بوصيته لأولاده التي جاء فيها: "اني قد بعت نفسي من الله ،فلا أزال أجاهد من كفر بالله ،وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا"[161] . وقدرت حملة عقبة بعشرة آلاف مقاتل[162] .

هذا وقد بدأت حملته متخذاً طريق الهضبة غرباً حتى وصل الى مدينة (باغاية) اذ التقى قوات الروم الهائلة العدد ومعهم حلفاؤهم في تلك المدينة المطلة على جبل أوراس[163] ،فأوقع فيهم الهزيمة ،ثم قصد مدينة أدنه في اقليم الزاب وهناك الحق الهزيمة بأعدائه من الروم ومن معهم من الحلفاء ،وألجأهم الى الحصون ،وتواصلت انتصارات عقبة على الروم حتى لا ذت فلولهم بحصن تاهرت[164] .

ووجد عقبة بعد ذلك نفسه أمام جموع كبيرة من الروم والبربر من قبائل لواتة وهوارة وزواغة

---

[159]ـ الدباغ، معالم الأيمان، 48/1.

[160]ـ المالكي: أبو بكر عبد الله بن عبد الله(ت نهاية ق4هـ)، رياض النفوس، نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة، مصر، 1951م، ج22/1.

[161]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص51.

[162]ـ الدباغ، المصدر السابق، 47/1.

[163]ـ الرقيق القيرواني: أبو اسحاق ابراهيم علي القاسم(ت417هـ) تاريخ أفريقية والمغرب ،تحقيق: المنجى الكعبي، تونس،1968م،ص42.

[164]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 25/1.

ومطماطة وزناتة ومكناسة[165] .وكانت القوات العربية الإسلامية قد استعدت لخوض غمار المعركة ،فقام عقبة بن نافع خطيباً يحض القوم على الصبر والصمود وملاقاة الأعداء بقوة القلوب المفعمة بالأيمان وحب الجهاد[166] ،والتقى الطرفان وجرت معركة حامية الوطيس ،ثقلت على المقاتلين المسلمين ،لكن الصمود والصبر والأيمان بالله أعجز جموع الروم وحلفاءهم من بعض البربر ،فولت قواتهم منهزمة تريد الاحتماء بالمدينة ،لكن المسلمين لم يمكنوهم من هدفهم فقضوا عليهم وقطعوا آثارهم[167] .

وفي مدينة تلمسان خاض عقبة معركة شديدة مع الروم انتصر فيها ،ثم مضى في طريقه حتى وصل الى اقليم الريف والسوس بما فيه طنجة وسبته وحاكمها يُليان (جوليان) الذي اعترف له بالتبعية والولاء وزوده بمعلومات مهمة عن أحوال الأندلس والروم[168] .ويبدو أن تلك أول معلومة وصلت الى مسامع المسلمين عن الأندلس اذ فتحت أعينهم ونبهتهم الى ذلك .

بعد ذلك قصد عقبة بن نافع صحراء درعة ومضارب أهل اللثام من بطون قبيلة صنهاجة الكبرى حتى اشرف على أسفي على المحيط الأطلسي ،وعندها وقف على المحيط وأخذ الحماس بمشاعره فأوغل بفرسه وسط الماء ثم لوى عنان فرسه ،وقيل أنه دخل

---

[165]ــ المصدر نفسه.

[166]ــ الرقيق القيرواني، المصدر السابق،ص43ــ44.

[167]ــ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،25/1.

[168]ــ الرقيق القيرواني، المصدر السابق،

مياه المحيط حتى بلغ الماء بطن فرسه ورفع يده الى السماء معتذراً قائلاً: "اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك"[169] .

وقد ترك عقبة آثاراً حضارية تجسد جهوده العسكرية الجهادية في تلك المناطق اذ بنى مساجد في جل المناطق التي مر بها لتكون مراكز لنشر الإسلام وتعليم أصوله ،ومنها مسجد درعة ومسجد نفيس ومسجد أيجلي قاعدة السوس الأقصى ومسجد في ماسة[170] .

وبعد أن حقق الانتصارات العظيمة عزم على العودة ،فدار جنوبي ماسة ماراً بايفرن يطوف ثم مضى شمالاً حتى تارنا ،ثم الى موضع شاكر الذي سمي نسبة الى صاحب عقبة ، شاكر الذي أسس رباطاً في هذه المنطقة[171] . وفي طريق العودة ضمن للإسلام قبائل ((حاحة ورجراجة ومصمودة)) تاركاً بينهم من يعلمهم أصول الإسلام ،اِلا أن ابن خلدون ،يذكر أن المصامدة فرضوا حصاراً على عقبة في منطقتهم فهبت قبائل زناتة لنجدته وفك الحصار عنه[172] . وحينما وصل

---

[169]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص72. المالكي، رياض النفوس،24/1.
[170]ـ لقبال، المغرب الأسلامي،ص52.
[171]ـ يقع هذا الرباط عند وادي تنسيفت في منتصف المسافة بين الموضع الذي اقيمت عليه مدينة مراكش. خليل السامرائي، المغرب العربي،ص76.
[172]ـ تاريخ ابن خلدون،117/6.

عقبة الى موقع طبنه التي تبعد عن القيروان نحوا من 300كم ،ترك لجنوده حرية العودة الى ديارهم بالقيروان ،ولم يبقى معه سوى بضعة آلاف ،وقيل أنهم كانوا خمسة آلاف فقط[173] .

ويعزو المؤرخون تصرف عقبة هذا أنما لأسباب هي:ـ

1ـ القرب من قاعدة أفريقية (القيروان)

2ـ الثقة بما نال من النصر على العدو

3ـ طول المدة التي قضاها المقاتلون في هذه الحملة ،فصرف معظمهم للحاق بمنازلهم وعيالهم.

4ـ بسبب ما قام به كسيلة الأوربي بعد أن تمكن من الهرب ،اذ طمر آبار المياه على طول الطريق السالكة الى القيروان ،مما دعا عقبة الى اِتخاذه طريق يتميز بقلة المياه ولا يكفي لإرواء القوات مجتمعة .

5ـ وربما يكون السبب لحالة الاعياء والإصابات التي حصلت لمعظم المقاتلين[174] .

وقد عول عقبة بن نافع على المقاتلين الذين معه على إِتمام ما بقي من المدن والحصون التي تفتح ، لن هروب

---

[173]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،29/1؛ ويذكر صاحب الاستقصاء :أن العدد ثلاثمئة فارس. 84/1.

[174]ـ خليل السامرائي، المغرب العربي،ص77. لمزيد من المعلومات ينظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص267. ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،28/1ـ51؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،106/4.

كسيلة زعيم قبيلة أوربة الذي كان يكره عقبة ويعارضه ،قد سنحت له الفرصة للاتصال مع الروم بتهوده التي كان عقبة قد قرر أن يفتحها ،وفي الوقت نفسه جمع معظم ابناء قبيلة أوربة ، واستطاع بحنكته أن يباغت عقبة بتهوده[175] .وعلى الرغم من أن عقبة تأكد من عدم التكافؤ بين تلك القوات التي استبقاها معه وبين قوات كسيلة ،فأنه أصر على مواجهة الواقع بشجاعة نادرة ،وفضل ذلك على الهزيمة ،فأمر جنوده بالنزول عن خيولهم وكسروا أغماد سيوفهم تعبيراً عن الصمود حتى النهاية .وهكذا تصدى الروم وحلفائهم لعقبة وجيشه ،وأسفر اللقاء عن هزيمة غير متوقعة لجيش المسلمين الذين قتلوا عن آخرهم بما في ذلك عقبة وأبو المهاجر دينار الذي كان عقبة قد سجنه بعد تسلمه الولاية الثانية لأفريقية ،اذ خيره عقبة بالرحيل بعد أن فك اغلال سجنه ،اِلا أنه أبى اِلا القتال بجنبه ،حتى نال الشهادة معه وأصحابه الذين سميت مقبرتهم ((مقبرة الشهداء)) وأصبحت المنطقة كلها باسم ((سيدي عقبة)) عوضاً عن تهوده[176] .

ويذكر أن كسيلة هذا زعيم أوربة كان يتصرف كأمير من الأمراء ،حتى أن أبا المهاجر قد نصح عقبة من قبل عندما أراد النهوض الى طنجة بقوله: "ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا ،وهذا رئيس البلاد ـ يعني كسيلة ـ فابعث معه والياً ،فأبى عقبة اِلا أن يخرج بنفسه"[177]. وضيق عقبة على كسيلة فأجبره

---

[175]ـ ابن عذارى، المصدر السابق،29/1.

[176]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،106/4.

[177]ـ الدباغ، معالم الأيمان،53/1.

على القيام بأعمال لا تليق بمركزه كزعيم لقبيلة ،مع اجماع الروايات على عدم استحكام الإسلام في قلبه[178]
.

لقد كان لاستشهاد عقبة بن نافع ، وأبي المهاجر دينار ، أثر عميق في نفوس المسلمين ،لأنهما أول القادة الذين استشهدوا في بلاد المغرب ،دفاعاً عن القيم والمبادئ الإسلامية ،وكان لذلك تأثير سلبي على معنويات الجند المرابطين في مدينة القيروان ،اذ لم يتمكن زهير بن قيس البلوي من معالجة الأوضاع فيها ،والصمود في الدفاع عن القيروان ، لذلك انسحب الى مدينة برقة ،أما كسيلة فلم يجد صعوبة في دخوله مدينة القيروان في المحرم من سنة 64هـ/684م فأمن من بقي فيها من المسلمين[179] ،وظل أميراً على القيروان وما يحيط بها مدة تقرب الخمس سنوات[180] .اذ كانت أوضاع الخلافة في دمشق تمر بظروف عصيبة أبعدت الخلفاء عن مشكلات المغرب وهمومه .

وبعد أن استقرت أوضاع الخلافة لعبد الملك بن مروان سعى لاستعادة سلطة الخلافة في العراق والمشرق ،وعندما بدأت الأمور تسير نحو الاستقرار ،قرر الخليفة استعادة القيروان، واكمال حروب التحرير ونشر الدين الإسلامي في عموم المغرب ،لذلك استشار أهل الخبرة والمعرفة في من يوليه أمر المغرب ،فأنتهى

---

[178]ــ المصدر نفسه.
[179]ــ الدباغ, معالم الأيمان،55/1.
[180]ــ ابن خلدون، التاريخ،147,109/6.

الى اختيار القائد زهير بن قيس البلوي والياً على المغرب وقائداً لجيوش الفتح[181] .

ثالثاً:ـ ولاية زهير بن قيس البلوي

لقد خلق استشهاد عقبة بن نافع وأصحابه في موقعة تهوده ،وضعاً مضطرباً لدى العرب المسلمين في أفريقيا والمغرب بعامة ، وهدد بحق المكاسب التي حققتها قوات الفتح العربية الإسلامية ،لكن وهير بن قيس البلوي الذي كان يتولى الولاية نيابة عن عقبة ،حاول أن يخفف من تأثير الانكسار النفسي المقلق لدى العرب المسلمين ،اذ قام خطيباً في مسجد القيروان الجامع فأوضح للناس الظروف التي أدت الى هزيمة اِخوانهم في موقعة تهوده وما أصابهم من جراء ذلك وحثهم على ضرورة البقاء في القيروان للقاء المعتدين ،فأما الشهادة وأما النصر الساحق الذي يرهب الأعداء ويثبت الإسلام في نفوس الذين آمنوا في المغرب بعامة[182] .لكنه في النهاية رضخ لرأي الأغلبية القائلة بوجوب الانسحاب من القيروان باتجاه المشرق تداركاً لهجمات قد تُشن من قبل الأعداء تزيد من مأزقهم .لذلك أنسحب زهير ين قيس ومن معه من المقاتلين الى طرابلس ،وأخذ يراسل ولاة مصر وربما الخلافة في دمشق ليطلعهم على الحال ويطلب مدداً جديداً لمواجهة الموقف المضطرب ويعيد به الوضع الى حالته الطبيعية ،ولكن الخلافة التي كانت تعيش ازمة سياسية بعد وفاة يزيد بن معاوية ،لم تستطع الاجابة السريعة لطلبه مما

[181]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،31/1.

[182]ـ لقبال، المغرب الأسلامي،ص55.

هيأ المجال أمام كسيلة الأوربي والمتحالفين معه للزحف نحو القيروان والسيطرة عليها طيلة الخمس سنوات .

دام سكوت الخلافة عن طلب زهير البلوي حتى خلافة عبد الملك بن مروان الذي أبتدأ نشاطه في شمال أفريقية بتأكيد تعيين القائد زهير بن قيس البلوي والياً على أفريقية ،وأمره بضرورة الدخول فوراً للإنقاذ من بقي من المسلمين ،وأمده بالرجال والأموال والخيول من مصر . وجعل في مساعدته مجموعة من رجال الحرب ،منهم أبو حيان الحضري ،وحشد اليه وجوه العرب وبعثهم اليه ،فوفدت الجيوش على زهير ،وتسرع الناس معه الى أفريقية[183] .

وبذلك تجمع لدى زهير جيش يزيد على ستة آلاف مقاتل بضمنهم ألفا مقاتل من القبائل المغربية المحلية واربعة آلاف من عرب المشرق ،زحف بهم زهير سنة 69هـ/689م من برقة نحو مدينة القيروان[184] . وكان كسيلة معه أضعاف مما مع زهير من عدد من القوات ،فدعا كسيلة أشراف البربر وقال لهم: "أن رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فأن بها قوماً من المسلمين ،لهم علينا عهود ونحن نخاف أن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا .ولكن ننزل على موضع ممس وهي على الماء ،فأن عسكرنا خلق عظيم ،فأن هزمناهم الى اِطرابلس قطعنا آثارهم ،فيكون لنا المغرب

---

[183]ـ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، 31/1.
[184]ـ المالكي، رياض النفوس، 30/1.

الى آخر الدهر ،وإن هزمونا ،كان الجبل منا قريباً والشعراء فنتحصن بهما"[185] .

هذا والتقى زهير بجيشه مع كسيلة وجرت معركة حامية في وادي ممس انهزمت بها جيوش كسيلة وتبعتهم جيوش العرب المسلمين حتى نهر ملوية[186] . ثم عاد زهير بجيشه الى القيروان ليعيد إصلاح ما دمره احتلال كسيلة الأوربي لها . ومن ثم عاد باتجاه المشرق عقب انتهاء معركة ممس وتأمين قاعدة القيروان من أي أذى بترك حامية صغيرة فيها وبترك أصحاب الأثقال فيها[187] .

ولتفسير سرعة انسحاب زهير البلوي من القيروان وعودته أتجاه المشرق افتراض واحد يتمثل في احتمال اطلاعه على ما يدبره الروم في الخفاء ضد منطقة برقة ، ذلك التدبير العدواني الذي حال دون تنفيذه وجود زهي على رأس حامية قوية في المنطقة ،لكن بابتعاده عن برقة وصلته أخبار هجوم الروم البيزنطيين على برقة مما جعله مضطراً للعودة على عجل لمواجهة القوات الرومية ،وهي تستعد للإقلاع في البحر وبين أيديهم أعداد من الأسرى المسلمين[188] .

ولعدم التكافؤ بين قواته وقوات الروم التي لم تكن تسمح بخوض مثل هكذا مواجهة ،لكن اندفاع

---

[185]ـ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق.
[186]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ المغرب،ص52.
[187]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص14.
[188]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 31/1.

المسلمين متحمسين لفك أسرهم دفعهم بقيادة زهير لخوض المعركة مترجلين في لقاء غير متكافئ في منطقة((درنة)) إذ كانت النتيجة هزيمة المسلمين واستشهادهم جميعاً ،وصار ما عندهم من سلاح وخيول وامتعة غنيمة سائغة للروم الذين أبحروا بعد هذا النصر الى جزيرة صقلية[189] . وسميت المنطقة التي استشهدوا فيها في مدينة درنة باسم "قبور الشهداء"[190] .

أما بقية الجيش الذين لم يشتركوا في المعركة نتيجة لبعدهم عن ميدانها فقد وصلوا دمشق ورووا للخليفة عبد الملك بن مروان ما وقع لزهير ومن معه من المسلمين ،فتأثر تأثراً عميقاً لهذه النتيجة المحزنة التي تشبه في هولها وشدتها كارثة ((تهوده)) من قبل . ورغبوا فيه ألا ينحني أمام الروم وحلفائهم ويترك أفريقية نهباً مقسماً بينهم ،ويفرط في الحقوق الثابتة التي حصل العرب بجهودهم ودمائهم وطالبه في النهاية أن يرسل إليها من يسد ثغرها ويصلح أمرها، فأجابهم "لا أرى أحداً كفوءاً لأفريقية كحسان بن النعمان"[191] .

رابعاً:ـ حسان بن النعمان الغساني

بعد استشهاد القائد زهير بن قيس البلوي ، وانشغال الخلافة الأموية بمواجهة حركة ابن الزبير وخروج الخوارج وغيرهم . عادت الاضطرابات الى الشمال الأفريقي .فعمت البلاد الفوضى ،وافترق أمر

[189]ـ المالكي، رياض النفوس،31/1.
[190]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص231.
[191]ـ ابن عذارى، المصدر السابق،33/1.

البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم واستمر الحال حتى سنة 73هـ/693م[192] ،عندما ولى الخليفة عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان الغساني والياً على المغرب ،وهو حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن يغمش بن عمرو بن مزيقيا بن عامر الأزدي[193] .تولى قيادة الجيش الإسلامي في أفريقية سنة 74هـ/693م في ظروف حرجة كانت تقتضي تنصيب شخصية كحسان . وهو يُعد من قادة الشام المشهورين ومن سلالة ملوك الغساسنة . ومن اكثر الرجال قرباً واخلاصاً للخلافة الأموية حتى كان يعرف عندهم بـ"الشيخ الأمين"[194] .

أن خطورة الموقف في هذا الجزء من الدولة العربية الإسلامية عقب استشهاد عقبة بن نافع في موقعة تهوده وزهير البلوي في درنة ،والذي نجم عن تحالف القبائل البرانسية والروم ووجوب استعادت هيبة الخلافة هناك الذي لا يتم إلا بتصفية النفوذ البيزنطي في أفريقية وتحطيم الروم والسيطرة على قاعدتهم قرطا جنة ،والقضاء على عنصر المقاومة المحلية المتمثلة في حركة قبائل البتر بقيادة زعيمتهم الكاهنة[195] .

لقد دخل حسان بن النعمان شمال أفريقية سنة 74هـ/693م على رأس جيش كبير قيل أنه لم يدخل

(192)ــ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص269.

(193)ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،34/1.

(194)ــ المصدر نفسه.

(195)ــ الكاهنة داهية: يسميها ابن خلدون في تاريخه 109/6 ((وهي بنت ماثية بن تيفان ويذكر انها كانت على دين اليهودية، وأنها لقبها عربي صرف)) وكانت تلقب بملكة جبال أوراس.

المغرب قبله جيش بعدده وعدته ،إذ بلغ الأربعين ألف مقاتل[196] .وكان خليطاً من العرب والبربر . وجعل حسان على مقدمة هذا الجيش محمد بن ابي بكر ،وهلال بن ثروان اللواتي[197]. وما وجود القائد هلال اللواتي إلا يعني رسوخ العقيدة الإسلامية بين هذه القبائل .

هذا وقد اعتمد حسان الغساني في خطته القتالية ستراتيجية عسكرية جديدة لمواجهة اعدائه من الروم وحلفائهم حين قرر أن يقاتلهم منفردين لا مجتمعين ،حتى يسهل القضاء عليهم واحداً بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده ،لذلك قرر أن يناجز الروم أولاً ثم يلتفت الى عناصر المقاومة المحلية[198] . فكانت قرطاجة[199] ،هدفه الأول لكونها قاعدة الروم ،وأعظم مدن أفريقية البيزنطية على البحر الشامي((المتوسط)) ،إذ قصدها حسان بكل قواته وحاصروها وعلى الرغم مما أبداه المحاصرون من مقاومة فقد استسلموا وتظاهروا بطلب الأمان والرغبة في ايقاف القتال الذي أزهق ارواح الكثير من فرسان الروم ،واستجاب حسان لطلبهم وأخلوا المدينة في جنح الظلام وهربوا في سفنهم إما الى جزيرة صقلية أو الى الجزائر الشرقية ((جزر البليار)) وسائر الأندلس تاركين خلفهم ضعفاءهم وبعض اثقالهم

---

[196]ـ ابن عذارى، المصدر السابق،34/1.

[197]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص270.

[198]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص84.

[199]ـ قرطاجة: مدينة في شمال ؟أفريقية ،تبعد عن القيروان بأكثر من 100ميل وعن تونس حوالي 12ميل في عمران منجل واشتهرت بآثارها العظيمة والضخمة. ابن أبي دينار، المؤنس،31.

،ثم زحف حسان بجيشه نحو مدينة بنزرت على مقربة من قرطا جنة فأنزلوا بالروم هزيمة شتت شملهم ،في حين فر حلفاؤهم من البرانس الى مدينة بوتة[200] .وأخذ يتتبع فلول المنهزمين ويبعث السرايا للقضاء على آثار المقاومة هناك . وبعد هذه الجهود العسكرية الكبيرة والانتصارات ، قرر أن يعود الى القيروان ليستريح فيها ويعيد تنظيم صفوف جيشه من جديد استعداداً للجولة الثانية ضد قبائل البتر بقيادة الكاهنة داهية[201] .

لقد أحيت الكاهنة المقاومة المحلية التي كان العرب المسلمون يعتقدون بأنها أخمدت نهائياً بعد معركة سهل ممس ، وفتح قرطاجنة وتشريد الروم وحلفائهم من البرانس فقد جاءت هذه الأحداث لتؤكد خطأ اعتقادهم ، إذ أن الأحداث لم تنته بعد بالنسبة لفرع البتر((أهل الوبر)) وبالنسبة للروم الذين ظلوا يراقبون الأحداث عن بعد ، فكلما بانت لهم ثغرة دخلوا منها[202]

.

تعد معارك حسان الغساني مع الكاهنة من أعظم المعارك التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية في شمال أفريقية ، وعلى هزيمتها كان يعول المسلمون أحلامهم في تحرير شمال أفريقية . إذ أن حسان عندما سأل أهل القيروان عمن يكون قد بقي من ملوك أفريقية ممن لهم قيمة في ميزان الأحداث ليناجزه الحرب أو يسلم . فأشاروا الى أمرأه تقطن منطقة أوراس يخافها

---

[200]ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،1/34–35.

[201]ــ المصدر نفسه.

[202]ــ لقبال، المغرب الإسلامي،ص77.

الروم في أفريقية ويخشون بأسها ويذعن لسلطانها جميع البربر إذ قالوا: "فأن قتلتها وأن لك المغرب كله ، ولم يبق لك مضاد ، ولا معاند"[203] .

ولما سمعت الكاهنة بزحف حسان الغساني إليها من القيروان انتقلت بقواتها من منطقة أوراس الى مدينة باغية التي تشرف على المنطقة ، وهدفها حتى لا يتحصن فيها حسان وينطلق منها الهجوم على منطقة الكاهنة ، والتحم الجيشان عند البلاء[204] ويسميه ابن الأثير نهر نيني[205] . وجرى قتال مرير انتهى بهزيمة حسان بن النعمان ومقتل عدد كبير من جنده وأسر ثمانين رجلاً من جيشه أطلقتهم الكاهنة فيما بعد جميعهم عدا خالد بن يزيد العبسي لشجاعته ووسامته وآخت بينه وبين ولديها على طريقتهم الخاصة[206] .وسميت المعركة بوادي العذارى ، وانسحب على أثرها جيش حسان الذي لا حقته قوات الكاهنة حتى منطقة قابس ، مما جعلت فلول الجيش الإسلامي تصل برقة حيث توقف هناك بأمر من الخليفة بعد أن كتب إليه حسان بنبأ الهزيمة التي حفت به على يد قوات الكاهنة[207] .

---

[203]ـ ابن عذارى، المصدر السابق،34/1ـ35.

[204]ـ اطلق عليه نهر البلاء بعد المعركة أو وادي العذارى نسبة الى كثرة الشهداء الذين استشهدوا في هذه المعركة .ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص270.

[205]ـ الكامل في التاريخ،369/4ـ370.

[206]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب،ص57.

[207]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،36/1.

وعلى أثر ذلك اتخذ حسان معسكراً لجنده بالقرب من قصور قديمة أصبحت تسمى فيما بعد بـ"قصور حسان"[208] ، إذ مكث هناك خمس سنوات ينظم صفوف جيشه ، ويراقب تطور الأحداث في أفريقية وينتظر إذناً جديداً من الخليفة عبد الملك بن مروان . وكان خالد بن يزيد العبسي يمده بالأخبار عن الكاهنة وعلاقتها بالروم وبقبائل البرانس من جهة ، وعن الروح المعنوية ومدى تماسك تلك الجيوش وإخلاصها للكاهنة من جهة أخرى ولاسيما بعد أن عم الاستياء من تصرفات الكاهنة بتخريب العمران وحرق المزارع وقطع الأشجار بقصد منع العرب من استغلالها كما أخبره بأن القوم لا تربطهم رابطة في هذه المدة ، وحثه في النهاية على الاسراع بالزحف للإجهاز على الكاهنة[209] .

وبعد أن لاحظ حسان أن الموقف يسير في صالحه ، وأن نفوس القبائل قد تغيرت تجاه الكاهنة وأخذوا يكرهونها ويفرون من حولها ، حتى أن فريقاً منهم قدم الى إقليم برقة يستغيثون بحسان لما حل ببلادهم على يد الكاهنة وسياستها في الأراضي المخربة ، لاسيما أن الامدادات قد وصلت إليه من الخلافة بالمشرق ، وصالحه أهل مدينة قابس ودانت له مدينة قفصة وقسطيلية ونفزاوة بدون حرب[210] .

[208]ـ الرقيق القيرواني، المصدر السابق،ص57.
[209]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص270ـ271.
[210]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص88.

وكانت الكاهنة قد قالت لولديها إني مقتولة وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الذي بعث حساناً[211] . وعليه استعدت الكاهنة للمعركة الفاصلة ، وعندما بدأت المعركة والتحم الجيشان انهزمت الكاهنة وجيشها ، وظفر بها فقتلت في مكان سمته المصادر ببئر الكاهنة[212] ، واستسلم ولدا الكاهنة مع اثنى عشر ألف من قبائل البتر ، إذ قود حسان كل واحد منهما على ستة آلاف من البتر[213] ، واستصحبهم معه وأرسلهم الى مختلف النواحي ليحملوا السيف في رقاب كل من لم يذعن من الروم وحلفائهم لحكم المسلمين . وبهذه المشاركة أكد حسان على مبدأ التسوية بين العرب والبربر لتحمل المسؤولية في نشر الدين الإسلامي في المغرب بعامة ، وهي خطوة بادر اليها الوالي أبو المهاجر دينار من قبل[214] .

ثم واصل حسان الغساني تطهير بعض المدن التي اتخذتها الفلول المنهزمة مراكز للمقاومة ومنها قرطاجنة التي عاد اليها الروم مستغلين انشغال حسان في قتال الكاهنة ، فالحق بهم حسان هزيمة منكرة تاركين المدينة التي أمر حسان بتخريبها وحرقها وقطع المياه عنها حتى ييأس الروم من العودة اليها مرة أخرى . وطهر ايضاً فحص تونس وقلعة زغلول بعد قتال دام ثلاثة أيام[215] ، ثم أقام حسان بالقيروان مدة استقدمه

---

[211]ـ ابن عذارى، المصدر السابق، 37/1.
[212]ـ ابن عبد الحكم، المصدر السابق،ص271.
[213]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 38/1.
[214]ـ لقبال، المغرب الإسلامي،ص89.
[215]ـ الدباغ، معالم الأيمان، 61/1.

بعدها والي مصر عبد العزيز بن مروان تمهيداً لعزله بعد انتصاراته العسكرية التي ثبتت الوجود العربي الإسلامي في شمال أفريقية أمام اطماع الروم المستعمرين وحلفائهم .

وقد لا نجد سبباً مباشراً لعزل حسان إلا على ما يبدو ظن الوالي عبد العزيز بن مروان أن حسان كان يتحاشاه في الرجوع اليه في شؤون أفريقية واتصاله كان مباشرةً بالخليفة عبد الملك بن مروان دون وساطة ، وهالته المنزلة التي تبوأها حسان في حملاته العسكرية ، علماً أن أفريقية كانت ولاية مستقلة تقريباً ، حالها حال مصر ، ومن يحكمها يسمى بالوالي .

وأعتقد أن الموضوع بجملته كان حسداً على الظفر الذي حققه حسان بن النعمان الغساني . وهكذا أعيد حسان الى دمشق ومثل بين يدي الخليفة عبد الملك الذي قدم له الشكر على اخلاصه وعزم الخليفة على رده الى مكانه والياً لأفريقية لو لا اعتذار حسان عن ذلك[216] ، لكبر سنه على ما يبدو مما جعل الخليفة يسند مهمة ولاية أفريقية الى القائد موسى بن نصير .

جهود حسان بن النعمان الإدارية

1ـ عمل على اتباع سياسة استندت على استمالت القبائل المغربية ، وذلك بتعيينه عمالاً وقادة من تلك القبائل . إذ اشعرهم من خلالها بأهميتهم في إدارة الولاية والدولة العربية الإسلامية كونهم جزءاً منها . مما يؤكد لهم بأن

[216]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص272.

سياسته لا تفرق في ميدان ممارسة المسؤولية بين العرب الفاتحين والقبائل المغربية المحلية[217] ، ولذلك أصبحت مهمة نشر الإسلام في المغرب الإسلامي تقع على مسلمي المشرق ومسلمي المغرب معاً .

2ـ عمل على إنشاء قاعدة حربية عربية إسلامية في المغرب لمواجهة الخطر البيزنطي القادم من البحر الشامي . إذ بنى مدينة تونس على أنقاض المدينة القديمة المسماة ترشيش شرق قرطاجنة وخرق البحر اليها ليوصلها به ، إذ كانت بعيدة عنه قليلاً ، وجعل رادس مرساً لها[218]. وأنشأ لذلك داراً لصناعة السفن وبناء الأسطول البحري ، كما زودها بالمحارس . وهكذا أصبحت أفريقية مركزاً بحرياً مهماً تخرج منه أساطيل المغرب وهي تحمل رايات الإسلام ، حالها كمصر والشام .

وحسان الغساني يُعد أول من وضع نواة الأسطول البحري العربي المغربي وبذلك سحب من الروم التفوق البحري على المسلمين في المغرب[219] .

3ـ قام حسان بأعمال عمرانية ، إذ عمل على تحسين مدينة القيروان واعادة تعمير ما خرب منها وتجديد مسجدها الجامع((مسجد سيدي عقبة)) وتوفير الوسائل الخدمية التي تبعث الراحة والاستقرار في نفوس أهلها واستقطاب مزيد من الوافدين عليها . يقول الدباغ: "أقام

---

[217]ـ المصدر نفسه،ص269.

[218]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،38.

[219]ـ لقبال، المغرب الإسلامي،ص88.

حسان بها ـ أي حسان وعمرها المسلمون وبنوا بها المساكن وانتشروا فيها وكثروا وأمنوا من أعدائهم وقطعوا شوكتهم ، وأقر الله أعينهم ، وعلموا أن الله قبل دعوة عقبة بن نافع فيما دعا لهم"[220] .

4ـ قام بتوزيع الأراضي التي أخذت من البيزنطيين على الفلاحين من أهل المغرب ، فقد جعل لكل قبيلة قطعة من الأرض تستغلها وتكون مسؤولة عن صدقاتها ، يذكر المالكي: "ومن ذلك صارت الخطط للبربر في أفريقية ، فكان يقسم الفئ بينهم والأرض ، وحسنت طاعتهم"[221] .

5ـ قام بتدوين الدواوين وتعريبها ، وجعل العربية لغة الإدارة وعين المصالح الحكومية المختلفة وهيئة الموظفين وعين نواب الأقاليم وعين على خراج قلعة زغوان رجلاً قبطياً يدعى إبراهيم بن النصراني[222] . وبذلك أصبح تكليف الموالي بالمناصب المهمة في المغرب أمراً مألوفاً منذ أن وضع اساسه أبو المهاجر دينار .

6ـ ومن الناحية المالية فقد نظم الخراج على الأراضي وأنشأ ديواناً للخراج عين عليه حنش بن عبد الله الصنعاني صاحباً للخراج في القيروان[223] . وكان وضع الجزية على الروم وعلى النصارى ، وكان

---

[220]ـ معالم الأيمان، 63/1.

[221]ـ رياض النفوس، 36/1.

[222]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية،ص64.

[223]ـ عامر السامرائي، الصلات الحضارية بين مدن مشارقية ومدن معاربية،ص170.

غالبيتهم من قبائل البرانس[224] . وأسند مهمة جمع أموال الجزية والخراج من أهل الذمة الى رجال من أهل طائفتهم وكما هو الحال في برقة ، إذ كانوا يجمعون الأموال ويدفعونها لمركز الولاية دون أن يدخل أراضيهم جابٍ ولا مستحدث[225] .

7ـ يُعد حسان بن النعمان الغساني أول من أعطى المغرب طابعاً عربياً إسلامياً بعد تحريره من الروم البيزنطيين ، إذ قام من خلال سياسة المساواة بين العرب الفاتحين وأهل المغرب في اسناد المهمات الإدارية والعسكرية إذ حقق سمعة طيبة ، وحبب الإسلام في ربوع أفريقية ونشره بين قبائلها وتوسعوا في بناء المساجد ، وعمق بين سكانها العادات والتقاليد العربية واللهجات العربية[226] ، فحقق بذلك بناء المجتمع الإسلامي الحق .

خامساً:ـ القائد موسى بن نصير

هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي[227] التابعي ، كان والده يعمل قائداً للحرس الخاص لمعاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام ، واشتهر بقوة شخصيته وبالمحافظة على الحياد في الأحداث التي شهدتها المنطقة يومذاك[228] .

---

[224]ـ المصدر نفسه.
[225]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص27.
[226]ـ مؤنس، فتح العرب للمغرب،ص292.
[227]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص232.
[228]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،259/4.

لقد برز موسى بن نصير كشخصية قوية في خلافة مروان بن الحكم ، إذ كان في بداية أمره مشابهاً لعبد الله بن الزبير ، وبعد هزيمة ابن الزبير في معركة مرج راهط سنة 65هـ/684م على يد مروان بن الحكم ، استجار موسى بعبد العزيز بن مروان والي مصر الذي توسط فيه لدى والده ليؤمنه على حياته بعد أن أقسم على أن يهب عمره في خدمة آل مروان ونصرتهم[229]. وتولى موسى عدة مناصب قبل توليه المغرب ، إذ عمل موسى على خراج البصرة عينه عبد الملك بن مروان[230] ، عين والياً على المغرب سنة86هـ/706م[231] ، في حين يجعل ابن الأثير ولايته على المغرب سنة 89هـ[232] . والراجح على ما أعتقد هو الرأي الأول ، أي سنة 86هـ بعد عزل حسان بن النعمان الغساني ، إذ من غير الممكن ترك المغرب بدون والي مدة طويلة من الزمن خوفاً من الفتن .

لقد ساد موسى بن نصير على وفق السياسة التي انتهجها أبو المهاجر دينار ، وسار بها شوطاً بعيداً حسان بن النعمان ، إذ عمل اصطناع البربر ، وأشركهم في جيوشه على نطاق واسع ، وعهد أيضاً الى فقهاء المسلمين بتعليمهم قواعد الدين الإسلامي[233] .

---

[229]ـ المصدر نفسه.

[230]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،39/1.

[231]ـ المصدر نفسه،41/1.

[232]ـ الكامل في التاريخ،539/4.

[233]ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،ص45.

وبدأ جهوده العسكرية بإخضاع القبائل التي كانت لا تزال خارج طاعة السلطة المركزية للدولة العربية الإسلامية في الشمال الأفريقي ، أو التي ارتدت عن الطاعة[234] . وقد ارسل الحملات العسكرية لتحقيق هذا الهدف منها:ـ

1ـ حملة قادها عبد الملك الخشني مؤلفة من (500) فارس قضت على عناصر التمرد في قلعة زغوان واعدام رئيس التمرد[235] .

2ـ حملة قادها أبنه عبد الله الى نواحي القيروان قضت على بعض بؤر المقاومة هناك ، ورأس أبنه مروان قوة لتطهير بعض المناطق هناك من المرتدين والمتمردين[236].

وبعد أن أطمأن موسى على طاعة المغرب الأدنى توغل بقواته في المغرب الأوسط والأقصى ، وطارد القبائل المرتدة حتى سجلماسة ووادي درعة ، وكان موسى قد لاحق قبائل كتامة التي اختلطت بالقبائل المرتدة وتراجعت نحو الجنوب وتمكن من قتل رئيسها هناك ، ومن القبائل الأخرى هوارة وزناتة[237] .

واستكمالاً لأعماله العسكرية في المغرب الأقصى ، فقد ارسل أبنه مروان على رأس خمسة آلاف مقاتل الى السوس الأقصى واستنزل المتمردين عن

---

[234]ـ المصدر نفسه،ص46.

[235]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب40/1.

[236]ـ المصدر نفسه.

[237]ـ المصدر نفسه.

معقلهم وصد تمردهم[238] . وأرسل زرعة بن أبي مدرك على رأس قوة في بلاد المصامدة فصالحهم دون قتال[239] . ثم قاد بنفسه حملة الى طنجة وحررها بعد حصار شديد . وكانت بها قبائل من البتر والبرانس ومنها بث موسى بن نصير السرايا في اتجاهات مختلفة ، وتوغلت حتى السوس الأدنى فأطاعته قبائل المنطقة وولى عليهم من البربر أمورهم . ثم عاد الى القيروان وترك على طنجة طارق بن زياد مع قوة عسكرية بلغ عدد افرادها ألفاً وسبعمائة مقاتل ازدادت فيما بعد حتى بلغت اثنى عشر ألفا من المغاربة وسبعة عشر ألفا من العرب الفاتحين[240] . وترك موسى مع طارق بن زياد سبعة عشر من فقهاء العرب المسلمين وقرائهم[241] . ليؤكد حرصه الشديد على الاهتمام بالثقافة الإسلامية وتعلم السكان لغة القرآن وتعزيز الإسلام في نفوسهم ، وهو تأكيد على سياسة الدولة العربية الإسلامية والهدف من الحملات العسكرية أساساً . لا كما يصوره الكتاب والمستشرقون من أن هدف الحملات هو من أجل المغانم والمكاسب الاقتصادية .

ويكون موسى بن نصير أول من نزل مدينة طنجة من قادة الفتح ، ووطأة خيله أرض المصامدة بعد عقبة بن نافه ، وأول قائد عربي مسلم ينسب إليه الفضل في إسلام أهل المغرب الأقصى والتمهيد لميلاد وتجمع إسلامي في المغرب يسود عناصره الوئام وتقودهم

---

[238]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب،ص97.
[239]ـ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،43/1.
[240]ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص276.
[241]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية،ص69.

أهداف مشتركة ، وإن اشتراك المغاربة مع المشارقة في المجهود الحربي لعبور المضيق وفتح شبه جزيرة إبريا للإسلام لدليل على وحدة الهدف والمصير وعلى مدى التمازج بين جناحي الأمة وعلى استقرار الإسلام نهائياً في بيئة المغرب وتمكنه من نفوس السكان لدرجة اصبحوا يضعون أنفسهم وقوداً لنشر شعلته في الآفاق ، ونتيجة للجهود التي بذلها موسى بن نصير في هذا المجال ، يذكر ابن خلدون نقلاً عن ابن ابي زيد القيرواني قائلاً: "إن البربر ارتدوا عن الإسلام اثنا عشر مرة ، من طرابلس الى طنجة ولم يستقر الإسلام بينهم حتى أجاز موسى نعه كثير من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد فاستقروا هناك ، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم مهمة الإسلام وتناسوا الردة"[242] .

ولم يقتصر موسى على هذه الفتوحات البرية فقط ، بل عمل على تقوية اسطوله البحري لضرب القواعد البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط ، وساعده على ذلك توافر الأخشاب الصالحة لبناء السفن . وهكذا استطاع أن يبني اسطولاً قوياً وأن يضرب قواعد البيزنطيين في جزر البحر المتوسط ، مثل جزيرة صقلية وجزيرة سردانيا وجزيرة قورسيا والجزائر الشرقية(جزر البليار) ، فشل بذلك حركة الأسطول البيزنطي ، يضاف الى ذلك أن موسى استطاع بفضل قوة بحريته أن يقدم بكل اطمئنان على

[242]ــ تاريخ ابن خلدون،111/1.

فتح اسبانيا للإسلام بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته الطويلة من خطر البيزنطيين[243] .

من كل ما تقدم نرى أن فتح المغرب وتحريره من السيطرة البيزنطية قد استغرق مدة طويلة من الزمن تقرب من الثمانين عاماً ، وهي مدة طويلة نسبياً إذا ما قورنت بالفتوحات الإسلامية الأخرى سواء أكانت في الأراضي الفارسية أم البيزنطية . إذ بدأت الأعمال العسكرية من سنة23هـ حتى نهاية القرن الأول الهجري وهذا راجع بطبيعة الحال الى مناعة بلاد المغرب ، وشدة رأس أهلها وشجاعتهم واعتزازهم بعقائدهم وعدم رضوخهم لأي سلطة مركزية بسهولة .

فضلاً عن ذلك هناك من العوامل الخارجية التي أثرت في تأخر الفتح والتي تمثل المشكلات التي حصلت في عاصمة الخلافة في اثناء الفتنة الكبرى واستشهاد الخليفة عثمان بن عفان((رضي الله عنه)) وتوقف الفتوحات الإسلامية نتيجة لذلك .

---

[243]ـ العبادي، في تاريخ المغرب،ص46.

الفصل الرابع

الأوضاع السياسية في المغرب العربي وأثرها في قيام

الأمارات المستقلة

أولاً:ــ إمارة الخوارج

ثانياً:ــ امارة الأدارسة

ثالثاً:ــ امارة الأغالبة

رابعاً:ــ الامارة العبيدية

خامساً:ــ امارة المرابطين

سادساً:ــ دولة الموحدين

لقد توالى على المغرب ولاة عدة ، كل والٍ منهم كانت له رؤية خاصة في إدارته لبلاد المغرب ، وكان من أحسن الولاة الأمويين ، محمد بن يزيد القرشي(97ــ100هـ) الذي عينه الخليفة سليمان بن عبد الملك ، إذ انعمت بلاد المغرب في عهده بالأمن والاستقرار وسيادة العدل[244] ، وبعده يأتي الوالي

[244]ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،47/1.

اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (100–102) وكانت سياسته تهدف الى نشر الإسلام بالحجة والاقناع والدعوة السلمية ، وهي السمة التي غلبت على سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إذ كان يعين الولاة الذين لهم مكانة علمية ودينية لغرض توجيه وإصلاح الناس .

وشهد المغرب ولاية عدد من الولاة ممن عرف بشدته حتى بغضه أهل المغرب ، ومنهم يزيد بن أبي مسلم ، ولاه الخليفة يزيد ين عبد الملك بن مروان(245) ، وكان شديداً على الموالين لموسى بن نصير من البربر ، حتى قيل أنه وشمهم بأيديهم واتخذهم حرساً له(246) . وقد أنف البربر من هذا العمل مما دفعهم الى قتله سنة 102هـ(247) وعين بعده بِشر بن صفوان(102–109هـ) الذي بذل جهوداً كبيرة لتهدئة قبائل البربر وإزالة اسباب النقمة على السلطة المركزية . وعين بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والياً سنة 110هـ(248) ، وعرف كفاية وحسن ادارته للمغرب ، في حين اغلظ بسياسته على اعوان سلفه بشر بن صفوان(249) ولما كانت سنة 116هـ عين عبد الله بن الحبحاب والياً للمغرب ، وعرف بإمكانياته الادارية والعسكرية لاسيما نحو جزيرة صقلية وسردانية وحقق

---

(245)ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص288.

(246)ـ المصدر نفسه.

(247)ـ المصدر نفسه.

(248)ـ ابن عذارى، المصدر السابق،50/1.

(249)ـ المصدر نفسه.

انتصارات كبيرة[250] . وعين على طنجة عمر المرادي الذي سار بالناس سيرة غير حسنة ، إذ عامل البربر بمنتهى الغلظة مما أدى الى الثورة ضده ، إذ تعسف في فرض الضرائب الجائرة على أهل المغرب مما دفعهم الى النزوع الى الاستقلال[251] ، على أن ثوران البربر لم يكن خروجاً على مبادئ الدين الإسلامي ، ولا على الخلافة ، إنما كان خروجاً على سلطة الولاة الحاكمة في المغرب ، وعلى هذا الاساس اجتمع البربر في الشمال بزعامة ميسرة المدغري الذي قتل عمر المرادي عامل طنجة[252] ، وعين نفسه خليفة وعين على طنجة من قبله عبد الأعلى بن حديج ، وهو من أصل رومي[253].

هذا ولم تدم سياسة المدغري هذا إذ اساءَ معاملة البربر أيضاً مما حملهم على الثورة ضده وقتله، ثم عينوا مكانه خالد بن حميد الزناتي الذي اصطدم في طنجة بقوات ابن الحبحاب التي يقودها خالد بن حبيب الفهري ، وكانت معركة شديدة انتهت باستشهاد خالد الفهري ومعظم جنده في واقعة الأشراف[254] .

ولم تستقر الأوضاع في عموم المغرب بل كثرة الثورات والانتفاضات ضد السلطة في المغرب لا سيما

---

[250]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب،ص108.
[251]ـ المصدر نفسه،ص109.
[252]ـ الطبري: محمد بن جرير(ت310هـ) ،تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل ؟إبراهيم، دار المعارف، مصر،1961م،ج254/4.
[253]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،52/1.
[254]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب،ص109.

بعد وصول المد الخارجي الى المغرب ، إذ على صوتهم بعد أن التفوا حول عكاشة بن أيوب الفزاري الخارجي ، وهددوا مدينة القيروان[255] ، وهنا يبدو أن النزاع لم يكن بين السلطة والبربر كقبائل متحدة ، وإنما كان سياسياً تزعمه في المغرب الخوارج الذين فروا من المشرق فوجدوا الأرض الخصبة لنمو افكارهم وآرائهم ومكنتهم من تعبئة الناس من قبائل البربر لمواجهة السلطة في المغرب ، فمكنهم ذلك فيما بعد من تأسيس امارات خارجية .

أولاً:ـ امارات الخوارج

تمكن الخوارج من اقامة بعض الدول بالمغرب العربي ، بعد أن فشلوا في إقامة ذلك في المشرق لاسيما في عهد الأمويين ، الذي ساعدهم على ذلك أن الأرضية السياسية في المغرب بعامة كانت متهيئة لذلك بسبب شعور المغاربة بالفارق بينهم وبين المشارقة ، وانعدام العدل والمساواة والحياة الكريمة . ويعود ذلك الى بعض الممارسات غير العادلة من قبل بعض الولاة . وعندما وجد الخوارج مقاومة ومعارضة كبيرة في المشرق بثوا دعاتهم الى اجزاء مختلفة من الدولة العربية الإسلامية .

---

[255]ـ المصدر نفسه،ص122.

فكان المغرب ملاذاً لهم بسبب ملاءمة مناخه السياسي لأفكارهم وآرائهم[256] . وأول اماراتهم:-

1ـ الامارة الإباضية الرستمية

عرفت بالإمارة الإباضية نسبةً الى عبد الله بن إباض المري التميمي[257] ، وكانوا قبل انتسابهم الى ابن إباض هذا يصفون أنفسهم باسم "الجماعة المؤمنة المسلمة" أو "جماعة المسلمين"[258] كذلك يسمون باسم "الشراة" استناداً الى الآية الكريمة: "إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"[259] لقد اثرت دعوة الإباضية تأثيراً كبيراً في قبائل المغرب وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية ، فقد كانت الظروف مهيأة لتقبل فكر وآراء الإباضية . وأول من دعا الى الفكر الإباضي في أفريقية سلمة بن سعد بن

[256]ـ ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله بن الحكم(ت214هـ) ، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن أنس واصحابه، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد،ط5، دار العلم للملايين، بيروت،1387هـ/1967م،ص82،89.

[257]ـ ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت276هـ)، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة،1960م،ص622.

[258]ـ عامر السامرائي، الصلات الحضارية،ص122.

[259]ـ سورة التوبة، الآية: 111.

علي بن أسد الحضرمي في أوائل المائة الثانية من الهجرة .

وكان سلمة هذا شديد التمسك بالمذهب الإباضي ، فيؤثر عنه قوله: "وددت أن يظهر هذا الأمر بالمغرب يوماً واحداً من غدوة الى الليل فما ابالي أن يضرب عنقي"[260] .

لقد حاول عبد الله بن إباض مواجهة الأمويين انطلاقاً من سلوكه المعتدل مواجهة سلمية ، فكان يخطط لإقناعهم بالحسنى بصحة مبادئه العامة .

ومن أولى الخطوات التي تبناها الإباضية في المغرب ، هي إرسال عدد من المبعوثين الى البصرة كي يدرسوا المبادئ الخارجية الإباضية لفترة أربع سنوات ، وكانوا أربعة هم: عاصم السدراتي ، وعبد الرحمن بن رستم ، وأبو داود القبلي النفزاوي وإسماعيل بن ضرار الغدامي ، وعندما وصل هؤلاء الى البصرة انضم إليهم شخص خامس هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني[261] .

عاد هؤلاء الى المغرب وكلهم أمل في أن يحققوا أشياء مهمة في ميدان الدعوة الإباضية . وحين وصولهم الى طرابلس في سنة140هـ/758م اجتمعوا بموضع قريب من طرابلس ، وقرروا أن يكون أبو الخطاب المسؤول الأول عن الدعوة الإباضية . ولم

---

[260]ـ أبو زكريا: يحيى بن ابي بكر(ت في النصف الثاني من ق4هـ)، السيرة وأخبار الأئمة ،مصر،ص42.

[261]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،157/6ـ159.

تمض مدة وجيزة حتى تمكن الإباضيون من السيطرة المحكمة على كل ليبيا الحالية ، وهذا ما مكنهم من التوجه غرباً والسيطرة على القيروان . ووصلت بعض قواتهم الى جبال القبائل[262] بالجزائر اليوم .

نجحت الدعوة الإباضية بتأسيس إمارة خارجية بالمغرب الأوسط(الجزائر) عرفت بالإمارة الرستمية الإباضية نسبة الى والد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم . وقيل أن عبد الرحمن هذا من أصل فارسي ، ذلك لأن عبد الرحمن بن رستم كان برفقة والده الذي قضى نحبه بمكة المكرمة اثناء تأدية فريضة الحج ، فتزوجت والدته برجل مغربي ، انتقل عبد الرحمن معها الى المغرب الأدنى ، وقد عرف عنه أنه شاب متقدم الذكاء متميز على اقرانه من حيث الاستعداد للتعلم ومن حيث سلوكه الأخلاقي وتميز بالكياسة والاتزان ، وهي صفات لفتت انتباه شيخ الدعوة الإباضية ابي الخطاب عبد الأعلى سابق الذكر .

وحينما عاد عبد الرحمن من البصرة عينه أبو الخطاب ممثلاً عنه في المغربين الأدنى والأوسط لكن إقامته بالقيروان لم تكن طويلة ، فقد اضطر لمغادرتها في سنة144هـ/762م بعد سماعه مقتل سيده أبي الخطاب على يد العباسيين ، فذهب الى طنجة ثم الى

---

[262]ـ بن يعمر: علي يحيى ،نشأة المذهب الإباضي ،القاهرة،1964م،ص29.

تهوده ثم لينتقل الى تاهرت التي ستصبح عاصمة للإمارة الرستمية الإباضية[263] .

تمكن عبد الرحمن بن رستم ومن موقعه الجديد ، أن يستقطب كثيرين من الأنصار والمؤيدين الذين تتوافر فيهم الصفات المطلوبة لتأسيس إمارة خارجية على المذهب الإباضي ، ويبدو أن هؤلاء الأتباع كانوا من الكثرة والقوة الى درجة شجعت عبد الرحمن بن رستم على الشروع ببناء مدينة خاصة بهم ، وتكون عاصمة للإمارة التي ينادون لها ، وكان ذلك سنة160هـ/777م.

بنيت المدينة الجديدة التي عرفت باسم تاهرت في موقع منيع ومحصن الى حد كبير هو سفح جبل جزول[264] ، وهذا الموقع عبارة عن غيضة أشبه[265] ، والاسم يذكر لمواضع مدن متعددة بالقرب من الموضع الذي بنى فيه عبد الرحمن بن رستم عاصمة الخوارج الإباضية .

مع مرور الأيام تعدت حدود هذه الإمارة الى أماكن نائية عن الموضع الجديد فوصلت في الجنوب الى قريب من نهر النيجر ، ووصلت في الغرب الى سجلماسة بجنوب المملكة المغربية الحالية ، ووصلت في الشرق حتى جبل نفوسة(الجبل الغربي) بليبيا ،

---

[263]ـ الشماخي: سير علماء جبل نفوسة،ص123.

[264]ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان،8/2ـ9.

[265]ـ المصدر نفسه.

ووصلت في الشمال الى تنس ومستغانم ووهران بالجزائر اليوم[266] .

ونطرح السؤال: هل نجح الخوارج الإباضية من تطبيق المبادئ التي نادوا بها العدل والمساواة ؟

على الرغم من أن الإباضية تظاهروا بحرصهم على تطبيق مبدأ الشورى والانتخاب ، هذا المبدأ الذي تمثل آنذاك بسبعة من زعمائهم . وقد انعكس ذلك سلباً على مسيرة الإمارة واستقرارها ،ثم ظهور مجموعة من الإباضيين أعلنت رفضها المطلق لحكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، وعرفوا هؤلاء في التاريخ الإباضي بالنكارية[267] ، وقد شكلوا هؤلاء خطراً للإمارة وحاولوا الانفصال .

ثم أن الإباضيين فشلوا في تحقيق مبادئهم التي أعلنوها بعد أن سلكوا الطريق نفسه الذي نكروه على أعدائهم ، إذ جعلوا الحكم وراثياً في ابناء عبد الرحمن بن رستم واحفاده سنة168هـ/784م خلفه مباشرة أبنه عبد الوهاب ، وكما قلنا أعلاه ، على الرغم من تظاهرهم بالشورى والانتخاب.

المنجزات الحضارية للإمارة الإباضية

تمكن حكام (تاهرت) من تحقيق منجزات حضارية على الرغم من الاختلاف الفكري بينهم وبين آراء جمهور فقهاء العالم الإسلامي عند ذاك ، وما

[266]ـ سيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير.

[267]ـ الشمخاني، سير علماء جبل نفوسة،ص144.

واجهه الخوارج بعامة من مقاومة كبيرة لاسيما في الشام والعراق ، نجدهم وكما اسلفنا من قبل ، قد وجهوا دعاتهم الى المغرب ، وبالفعل قد وجدوا ضالتهم ، وتمكنوا من نشر ثقافتهم ، وكان لها أثر واضح في صفوف المجتمع المغربي ، وإن كانوا لم يعمروا طويلاً ، إلا إننا يمكن أن نجمل إنجازاتهم بالآتي:ـ

1ـ اهتمامهم بالجانب الزراعي ، إذ خصوبة الأرض التي سيطروا عليها وصلاحيتها للنشاط الزراعي ، لاسيما وادي شلف ، الذي ساعد على قيام زراعة مهمة مثل الحبوب والكتان وغير ذلك[268] .

2ـ اهتمامهم بالجانب التجاري ، إذ نشطت التجارة حيث نجاح الزراعة من جهة وموقع تاهرت التجاري من جهة أخرى ساعدت على ازدهار النشاط التجاري مع الأندلس ، التي كانت سفنهم في حركة مستمرة بين موانئ الإمارة الإباضية والموانئ الأندلسية على البحر المتوسط ، زيادة على حركة القوافل التجارية بين تاهرت وبين دول أفريقية الغربية وسجلماسة ، وكانت تجارتهم تصل الى بلاد الفرنجة ، كالذهب والجلود وريش النعام ، والحرير ، والصوف ، والخزف ، والعطور ، وبعض المصنوعات المعدنية ، الأمر الذي انعكس على اقتصاد الإمارة الإباضية ، إذ نعم سكانها بالرفاهية والازدهار المعاشي[269] .

---

[268]ـ المصدر نفسه،ص183.

[269]ـ الباروني: سليمان بن عبد الله ،مختصر تاريخ الإباضية، طبعة تونس،1938م،ص53.

3ـ على الرغم من التقاطع العقائدي بين الخوارج بعامة ، والمذاهب الإسلامية الأخرى ، والحركات الإسلامية بخاصة إلا إننا نجد نوعاً من التسامح من جانب الإباضية ، ويتضح ذلك من أن المجتمع في تاهرت فيه المعتزلة وفيه من المسيحيين وغير ذلك . وقد ساد بين هؤلاء وبين الإباضية مناقشات وحوارات غلب عليها احترام المقابل[270] ، ويبدو ذلك للإعطاء الوجه الحضاري للإمارة الإباضية بخاصة وهم طبقة واجهوا المشكلات أول ظهورهم وكما اسلفنا من قبل .

4ـ اهتمام حكام الإمارة الإباضية بمختلف العلوم وتشجيعهم للعلماء وبعثهم لحياة علمية متطورة، ولا أدل على ذلك من أن مؤسس الإمارة عبد الرحمن بن رستم كان من العلماء البارزين في عصره ، والدليل على ذلك أنه وضع تفسيراً للقرآن الكريم بنفسه ، ثم تأليفه عدد من الكتب . كما نحى خلفه ابنه عبد الوهاب ذلك المنحى العلمي إذ ألف كتاباً في فقه الإباضية هو (مسائل جبل نفوسة) وهو عبارة عن أجوبة لأسئلة كانت ترد عليه من جبل نفوسة بجنوب غرب طرابلس الغرب[271] .

كذلك اقدامهم على شراء الكتب الثمينة ليضمنوها في مكتبة تاهرت الشهيرة التي كانت من أهم المظاهر العلمية والحضارية في الإمارة الإباضية . حتى قيل أنها احتوت على 300 ألف مجلد في مختلف

---

[270]ـ ابن الصغير المالكي(ت281هـ)، اخبار الأئمة الرستميين وسيرهم ،تحقيق وتعليق محمد ناصر إبراهيم بحاز، دار المغرب الإسلامي،1986م،ص15.

[271]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،20/1.

فنون المعرفة ، والمؤسف له أن تلك المكتبة قد دمرت بما تحتويه من مؤلفات على يد العبيديين[272] .

5ـ ومن أهم إنجازاتهم الحضارية هو تخليد شاخص مهم لإمارتهم ، ألا وهو العمران والبناء والتشييد ، فقد بنوا القصور الجميلة والمنشآت المختلفة في تاهرت وما يحيط بها من مدن ، حتى تمكنوا من ايصال مياه الشرب بقنواة الى تلك المنشآت[273] ويبدو أن ما تعرضت له تاهرت من دمار وتخريب قد محا تلك الشواهد الحضارية ، واعمال التخريب تلك كانت جزء من سياسة الولاة والحكام والأمراء ، إذ أي والي أو أمير يتسلم مقاليد السلطة يعمل على تدمير ما بناه سلفه وتلك السياسة للأسف أضرت بالكثير من المنجزات الحضارية على مدى تاريخ دولة الإسلام .

6ـ وكان للعلاقات السياسية جانب مهم في الإمارة الإباضية ، إذ تمتع حكامها بالكياسة والدبلوماسية ، فكانت لهم علاقات حسنة مع الدولة الأموية بالأندلس[274] .

كما كانت لها علاقات دبلوماسية مع المصريين ، بالرغم من أنها كانت ولاية تابعة للدولة العباسية ، حتى

---

[272]ـ ابن الصغير ، المصدر السابق،ص26.

[273]ـ المصدر نفسه.

[274]ـ ابن القوطية القرطبي: أبو بكر محمد(ت367هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق: خوليان روبيرا، بيروت،1958م،ص91وما بعدها .

ترسخت العلاقات التجارية بين الإمارة الإباضية وولاية الفسطاط[275] .

2ـ إمارة بني مدرار الخارجية بسجلماسة

تأسست هذه الإمارة في وقت مبكر من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، تأسست في واحة سجلماسة في أعالي وادي زير على أطراف الصحراء في المغرب الأقصى ، إذ كان الموقع على جانب كبير من الأهمية التجارية ، ذلك لأنها كانت محطة لمرور القوافل التجارية باتجاه غرب أفريقية وبالعكس .

وهي ثاني إمارة للخوارج في المغرب العربي الكبير . لقد أُعلِن عن تأسيس هذه الإمارة رسمياً في سنة 138هـ/755م ، وأعلنت الإمارة مبادئ عملها أو الأساس التي قامت عليه ، وهي تطبيق العدل والمساواة وعدم التفريق بين الناس ، سواء أكانوا بيضاً أم سوداً أحباشاً ، وفعلاً في أول حكمهم عينوا رجلاً اسوداً يدعى عيسى بن يزيد الأسود المكناسي[276] ، ووضعوا مبدأ لخلعه في حال اعراضه عن مبادئهم التي أقروها . وبعد حكم دام ربع قرن تقريباً خلعوا عيسى بن يزيد من قيادته للإمارة وحدث ذلك سنة 167هـ/784م ، وعملوا عملاً يدعو للاشمئزاز والاستنكار ، تمثل بقتلهم إمامهم الأول عيسى بصورة وحشية ، ثم عينوا لقيادة الإمارة

---

(275)ـ السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير،572/2.

(276)ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص148.

أحد المكناسيين ، وهم بذلك خالفوا القواعد والمبادئ التي كانت تنادي بها الإمارة الخارجية والتي كانت تقوم على اساس الشورى والانتخاب ، إلا أن ذلك لم يحصل إذ أصبحت ولاية يرث الابن الأب وهكذا .

هذا وقد توالى على حكم الإمارة المدرارية عدد من الأمراء ، أولهم أبو القاسم سعدون بن واسول المكناسي ، الملقب بالمدرار ، وقيل أنه كان حداداً وأصله من الأندلس من حي الربض ، والربضيون هم اصحاب ثورة الربض في قرطبة إذ لجؤوا الى المغرب في عهد الأمير الحكَم الربضي الذي لُقبَ بالربضي لأنه حدثت حادثة الربض خلال إمارته . وكانت فترة حكم أبو القاسم هذا قصيرة ، إذ خلفه أبنه الياس المعروف بلقب الوزير ، واستمر في حكم سجلماسة حتى سنة 274هـ/791م، إذ ثار عليه جماعته واتباعه واقصوه عن الحكم ، وأقاموا بدلاً منه أخاه اليسع ، الذي توطدت في عصره أسس الإمارة المدرارية وتحسنت أحوالها ، فهو يُعد المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ، ففي عصره اتسعت رقعتها حينما استطاع أن يضم إليها منطقة درعة ، التي كانت من مناطق جنوب المغرب الأقصى المهمة لموقعها على طريق القوافل التجارية وخصوبة أراضيها وصلاحيتها للزراعة[277] .

أهم مميزات الإمارة المدرارية

[277]ـ أحمد: علي ،تاريخ المغرب القديم والإسلامي، مطبعة الداووي، دمشق،2007م،ص83.

1ـ ازدهرت فيها الزراعة آنذاك لتوفر الأراضي الخصبة القريبة من نهر زير الدائم الجريان ، ومن أهم منتجاتها الزراعية كانت ، الحبوب ، والتمور ، والكرم ، والكراوية ، والحناء والكمون. وكذلك من منتجاتها النيلة وشجر الناكوت والقطن الذي أُدخِل إليها واصبح من أهم منتجاتها ، إذ دخل في صناعة المنسوجات ، كذلك صناعة دباغة الجلود[278] .

2ـ ازدهار تجارتها ورواجها ، إذ بسبب موقعها الستراتيجي على طريق القوافل التجارية ، اصبحت بوابة غرب القارة الأفريقية ، إذ كانت من أهم مصادر الذهب في العصور الوسطى ، مما جعلها محطة مهمة لكل القوافل التجارية التي تتزود منها بكل احتياجاتها[279] . وهذا الموقع ساعد مواطني سجلماسة على الاشتغال بالتجارة بين الجنوب والشمال ، وبين المغرب والأندلس، واحياناً بين مصر والأندلس ، الأمر الذي جعل تجار سجلماسة من اكبر تجار المنطقة[280] .

---

[278]ـ الحميري: عبد المنعم البستي(ت710هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق: احسان عباس ،طبعة بيروت،1975م،ص236.

[279]ـ ابن أبي زرع: أبو الحسن عبد الله الفاسي(ت 720هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط،1973،ص128.

[280]ـ ابن حوقل: حميد بن علي النصيبي(ت317هـ)، صورة الأرض، بيروت،ص96وما بعدها.

3ـ اسهمت سجلماسة بنقل الفنون المعمارية خاصةً من المشرق العربي ، بفعل الأقبال عليها ، ونتيجةً للاتصال التجاري بين المشرق والمغرب[281] .

4ـ ما شهدته سجلماسة من تسامح في التعايش مع غير المسلمين كاليهود الذين وفدوا إليها وعملوا في المجال التجاري والصناعي ، حتى تشكل في سجلماسة جالية لهؤلاء اليهود .

ثانياً:ـ إمارة الأدارسة(172ـ375هـ/788ـ985م)

ينتسب الأدارسة الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن ابي طالب((رضي الله عنه)) ، الذي فر من موقعة فخ بالقرب من مكة سنة 169هـ/785م بصحبة مولاه راشد باتجاه بلاج المغرب العربي التي وصلها بمساعدة من واضح صاحب بريد مصر[282] . إذ حمله على البريد الى المغرب ، ولحق ادريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد ونزل بمدينة وليلى سنة 172هـ ، وفيها يومئذ إسحق بن محمد بن عبد الحميد ، أمير قبيلة أوربة وزعيمها ، فأجاره وجمع البربر على القيام بدعوته[283] . واجتمعت عليه قبائل زواغة ولواتة وسدراته وغياثه ونفزه ومكناسة وغمارة ومن باقي قبائل البربر بالمغرب الأقصى ، فبايعوه

---

[281]ـ الوزان: الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي ، وصف افريقيا ، مطبعة دراخة البلاد، الرباط،1980م،ج425/2.
[282]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص118.
[283]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،12/4.

وقاموا بأمره ، وخطب بالناس يوم بويع فقاتل: بعد حمد الله والصلاة على نبيه ، لا تمدن الأعناق الى غيرنا ، فأن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا[284] .

وأول خطوة اتخذها إدريس بعد بيعة تلك القبائل ، تكوين جيش منهم يمكنه من تحقيق الأهداف التي وضعها ، وبدأ بالزحف بعد ذلك الى منطقة تامسنا لمحاربة البرغواطيين[285] ، إذ كان أغلب سكان تلك النواحي على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه[286] .

وفي سنة 173هـ/789م زحف الى تلمسان ، إذ بايعه أميرها محمد بن خزر[287] فأعطاه الطاعة وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناتة ، وبنى بها مسجداً ثم رجع الى مدينة وليلى إذ دس إليه السم بواسطة سليمان بن جرير الشماخ ، فتوفى سنة 177هـ/793م ، ودفن في مدينة وليلى.

إدريس الثاني

---

[284]ـ المصدر نفسه.

[285]ـ برغواطة: من قبائل المصامدة المستوطنين فيما بين سلا وآسفي وعاصمتهم هي شالة ثم ازمور. وكان من بينهم صالح بن طريق أحد قادة ميسرة المدغري والداعين لمذهبه، حتى قتل ميسرة، استمر صالح في تامسنا بتزعم برغواطة. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،60/1.

[286]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،12/4.

[287]ـ المصدر نفسه،13/4.

لقد ترك إدريس بن عبد الله زوجته حاملاً ، وبعد وفاته وضعت ولداً أسمه إدريس الثاني[288]. وكانت زوجته تدعى كنزة ، وهي من قبائل البربر التي نزل عندهم . وبعد ولاة إدريس الثاني تولى تربيته ورعايته مولى أبيه راشد حتى بويع بالإمارة سنة 188هـ/804م[289] . ويذكر أن مبايعته جرت في مسجد مدينة وليلى ، وهو ابن إحدى عشرة سنة[290] .

وبعد أن اغتيل راشد الذي رعى إدريس الثاني ، تعهد بكفالته ورعايته أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدي [291]
.

وقد وفدت على إدريس الثاني قبائل العرب من أفريقية والأندلس ، ويقدر ابن خلدون عددهم ، بخمسمائة فارس أغلبهم من القيسيين والأزد والخزرج ومدلج وبني يحصب[292] وبايعته القبائل المغربية جميعها من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة[293] .

ولما يتمتع به إدريس الثاني من مكانة كونه من آل بيت محمد((صلى الله عليه وسلم)) فقد استماله هذه القبائل لكونه أوفر حظاً عندهم من الخوارج . ولذلك تمكن من استجماع قوته العسكرية واستكمالها وتعبئتها

---

[288]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص122.
[289]ـ ابن خلدون، المصدر السابق.
[290]ـ المصدر نفسه،13/4.
[291]ـ المصدر نفسه،13/4.
[292]ـ المصدر نفسه.
[293]ـ الجزنائي، جني زهرة الآس،ص13.

بجيش قوي مكنته من توطيد حكمه وتحقيق الأمن في بلاد المغرب[294] .

هذا وقد تميز عهد إدريس الثاني بخصائص هي:ـ

1ـ تقريبه للعناصر العربية المشرقية ، إذ اتخذ من الذين وفدوا عليه من القيروان بطانة له ، يقول ابن خلدون: "وكانوا بطانة وحاشية واستفحل بهم سلطانه ، هذا وقد استوزر منهم مصعب بن عيسى الأزدي المسمى بالملجوم ، وعبد الله بن مالك المخزومي كاتباً ، وعامر القيسي قاضيا"[295] .

2ـ عمل على تأمين حدود إمارته ولاسيما مع الأغالبة ، إذ صالح الأمير إبراهيم بن الأغلب وطلب وده في أن يخلي بينه وبين المغرب الأقصى ، واستجاب ابن الأغلب لطلبه ، إذ تيقن أن للأدارسة الأثر الكبير في تثبيت الإسلام بين قبائل المغرب المحلية[296] ولهم الدور في خدمة الدين الإسلامي من خلال دعم المسيرة العلمية ونشر علوم الدين عبر تشجيع الأمراء الأدارسة للعلماء والأدباء ، واشتهارهم بالاشتغال بعلوم الدين والشريعة الإسلامية .

3ـ كسب ود قبائل المغرب لدرجة أن قبيلة أوربة ، ظلت مخلصة تساعد الأدارسة على الرغم من ميل

---

[294]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص120.

[295]ـ تاريخ ابن خلدون،137/4.

[296]ـ محمود: حسن، العالم الإسلامي في العصر العباسي،ص412.

زعيمها إسحاق بن محمود الأوربي الى الأغالبة ، وتآمره معهم ضد إدريس الثاني[297] .

4ـ تمكن من مواجهة الخوارج ، فقد حارب صفرية المغرب وقضى على دعوتهم فأمتد حكمه من السوس الأقصى الى وادي شلف[298] .

5ـ بناؤه مدينة فاس

لما كثرة الوفود على إدريس الثاني من القيروان والأندلس ، ضاقت مدينة وليلى بالسكان ولذلك عزم إدريس الثاني على إختيار موضع جديد يؤسس فيه مدينة جديدة يسكنها هو وخاصته من قومه[299] .

وفي سنة 192هـ شرع ببناء مدينته[300] ، وقد وردة روايات مختلفة في تسميتها باسم فاس ، إلا ان الأقرب الى الصحة هو ما ذكره ابن ابي زرع من أن مدينة قديمة كانت تقوم في هذا الموضع ، اندرست قبل مئات السنين وكان اسمها (ساف) فقلب الاسم بعد تمام بناء المدينة فعرفت باسم فاس[301] .

ولما تم بناؤها أمر بالانتقال إليها ، إذ وزع عليهم الأراضي وأَمرهم ببناء الدور وغرس الغروس والأشجار ، ثم أقام سورها ، ومدينة فاس تنقسم الى

---

[297]ـ حركات، المغرب الكبير، 100/1.
[298]ـ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب،ص29ـ30.
[299]ـ المصدر نفسه.
[300]ـ ابن ابي زرع، الأنيس المطرب،ص38ـ40.
[301]ـ المصدر نفسه،ص40.

قسمين ، عرفت الأولى ((بعدوة الأندلسيين)) نسبة إلى الأقوام التي وفدت على إدريس الثاني من الأندلس بعد حادثة الربض . وسميت الثانية ((بعدوة القرويين)) نسبة للقبائل التي وفدت عليه من مدينة القيروان .

هذا وقد شابهت مدينة فاس مدينة بغداد ، من حيث كونها مدينتين يفصل بينهما وادي فاس ، إذ أن بغداد تقسم الى الكرخ والرصافة ، وبفصل بين الكرخ والرصافة نهر دجلة .

وقد احيط بمدينة فاس بعدوتيها الأندلسية والقيروانية ، سورٌ فتحت فيه عدة أبواب ، ففي عدوة الأندلسيين ، ابواب: باب القبلة وباب الخوخة وباب أبو سيفين ، وباب جراوة . أما أبواب سور القرويين فأهمها: باب أفريقية ، وباب القلعة ، وباب الحديد ، وباب الفرج[302] .

وقد أورد البلدانيون معلومات مهمة عن مدينة فاس ، إذ يقول اليعقوبي أنها: "مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان"[303] ، ويصفها البكري بقوله: "أنهما مدينتان مسورتان مقترنتان مسورتان بينهما نهر مطرد وعدوة القرويين غرب عدوة الأندلسيين"[304] .

[302]ـ الجزنائي، جني زهرة الآس،ص19ـ20.

[303]ـ البلدان،ص357.

[304]ـ المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص115.

أما الإدريسي فيذكر : " انها مدينتان بينهما نهر والمدينة الشمالية تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلسيين"[305] .

ويبدو أن إدريس الثاني كان يخشى أن تدبر ضده المؤامرات من قبل قبائل البربر في مدينة وليلى بسبب تقريبه العرب الذين وفدوا عليه من القيروان واستيزارهم في الوظائف الإدارية والعسكرية .

لقد كان لبناء مدينة فاس أثر كبير في دعم إمارة الأدارسة وإرساء دعائمها من الناحية السياسية والعسكرية ، إذ اتخذها منطلقاً لجيوشه التي أعدها لمواجهة الخارجين على سلطة الإمارة من جهة ، والبربر الوثنيين من جهة أخرى ، لاسيما في مناطق نفيس وبلاد المصامدة ، وكذلك غزو قبيلة نفزة في مدينة تلمسان ومحاربة الخوارج الصفرية[306] .

نشأت مدينة فاس لتكون عاصمة لدولة الأدارسة وعاصمة للمغرب الأقصى ، فلم تكن مقراً للحكم فقط وإنما كانت مدينة ملكية لمن جاء بعد إدريس من ابنائه وأحفاده ، حتى صارت كبغداد، بل وقيل عنها بـ"بغداد المغرب"[307] .

---

[305]ـ محمد بن محمد بن عبد الله(ت560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ايطاليا،ص75ـ76.

[306]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ص123.

[307]ـ لمزيد من المعلومات عن مدينة فاس وموقعها وخططها راجع: عامر السامرائي، الصلات الحضارية بين مدن مشارقية ومدن مغاربية،ص32ـ36.

الإمارة بعد إدريس الثاني

توفى إدريس الثاني سنة 213هـ ، وقيل انه مات مسموماً[308] . وقد ترك معقباً اثنى عشر ولداً ذكراً ، وعهد بأمر البلاد الى ابنه الأكبر محمد[309] .

وبإشارة من جدته (كنزة) قَسمَ الأمير محمد بن إدريس الثاني ، إدارة الإمارة بين إخوته واختص هو لنفسه مدينة فاس حاضرة المغرب التي سارت مركزاً سياسياً احتل شهرة مرموقة في جميع انحاء العالم الإسلامي[310] .

وبسبب تقسيمها بين ابناء إدريس ، لم تهدأ أوضاع الإمارة العامة ، ولم يدم عزها سوى ربع قرن ، وتعد فترة حكم محمد بن إدريس (ت221هـ) وابنه يحيى بن محمد بن إدريس ، الذي شهدة في عهده مدينة فاس ازدهارا واضحاً في جميع ميادينها ، إذ وصفها ابن أبي زرع بقوله: "فكثرت العمارات بها وكثرت الأرباض واتصل البناء حولها من كل جهة"[311] ، وازدهر عمرانها فبنيت الحمامات العامة والفنادق التجارية للتجارة وبنيت الأرباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية والدانية[312] .

---

[308]ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،211/1.
[309]ــ المصدر نفسه.
[310]ــ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،14/4.
[311]ــ الأنيس المطرب،ص46.
[312]ــ ابن خلدون، المصدر السابق،15/4.

ومن أعظم الأمراء الأدارسة سلطاناً ، هو يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني (ت 292هـ) الذي قيل عنه أنه: "كان فقيهاً عارفاً بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة"[313] . وفي عهد يحيى هذا بدأت إمارة الأدارسة تتعرض الى خطر العبيديين ، ففي سنة 305هـ انهزم جيش الأدارسة أمام جيش العبيديين ، بقيادة مصالة حبوس الكتامي ، فاضطر يحيى بن إدريس الى طلب الصلح على مال يؤديه للعبيديين ومبايعتهم[314] فجُرِدَ من أعماله وأملاكه وتركت له فاس ليكون أميراً عليها ، لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً ، ولم يشأ العبيديون أن يتركوا الأدارسة ، فقد أقاموا على فاس ريحان الكتامي وهو من كبار قادتهم ، غير أن عهده لم يدم طويلاً ، فبعد ثلاثة اشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام واستولى عليها وحكمها عامين ، ويشير ابن خلدون الى أن العبيديين دبروا نهاية إمارة الأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي الذي ولوه على نول وبلاد تازا وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلاء بعضهم عن مدينة فاس[315] . وتعقبهم الى مدينة حجر النسر "الحجر"[316] ، والاستيلاء على عدوة الأندلسيين سنة 375هـ .

---

[313]ـ المصدر نفسه،16/4.

[314]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص126.

[315]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،16/4.

[316]ـ الحجر: وتسمى قلعة النسر ايضاً وهو حصن منيع بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس الثاني على

وفي حجر النسر هذا تعرض الأدارسة الى ضغوط الدولة الأموية بالأندلس . ففي خلافة عبد الرحمن الناصر ألحق الجيش الأموي بقيادة غالب الهزيمة بالحسن بن كنون ، وفي سنة 373هـ تمكن قائد المنصور بن أبي عامر المدعو عسكلاجة من ألحاق الهزيمة بالحسن الذي فر الى مصر ثم عاد فيها متسلماً للمنصور بن أبي عامر الذي دبر اغتياله سنة 375هـ ، ووضع بذلك نهاية للإمارة الإدريسية في بلاد المغرب[317] .

أبرز الأمراء الأدارسة الذين تولوا حكم الإمارة:ـ

1ـ إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب((رضي الله عنه)) وعرف بإدريس الأول (172ـ177هـ/788ـ793م) .

2ـ إدريس الثاني بن إدريس بن عبد الله (177ـ213هـ/793ـ838م) .

3ـ محمد بن إدريس الثاني (213ـ221هـ/828ـ836م) .

مقربة من مدينة البصرة المغربية في شمال المغرب الأقصى لا يصل إليه أحد إلا عن طريق واحد صعب المجاز كثير الخيرات، لها بساتين وعمارات . ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،214/1.

[317]ـ ابن عذارى، المصدر نفسه،337/1.

4ـ عمر بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم بلاد صنهاجة .

5ـ حمزة بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم وليلى وأعمالها .

6ـ يحيى بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم أصيلا والعرائش (بلاد زواغة) .

7ـ عبد الله بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم أغمات وبلد تغمس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى .

8ـ القاسم بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم سبته وطنجة وقلعة حجر النسر وهسكورة .

9ـ عيسى بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم مكناسة وتادلا وبلاد فازاز .

10ـ داود بن إدريس الثاني (213هـ/828م) حكم بلاد هوارة وفازي وقبائل مكناسة وغياثة .

11ـ علي الأول بن محمد الملقب (حيدرة) (221ـ234هـ/836ـ849م)

12ـ يحيى الثاني بن يحيى الأول .

13ـ علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني .

14ـ يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني الملقب (العدام) .

15- يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (292-310هـ/904-922م) .

16- الحسن الحجام بن محمد (310-313هـ/922-925م) .

17- كنون بن محمد .

18- أبو العيش أحمد (337-343هـ/948-954م) .

19- الحسن بن كنون (334-364هـ/954-974م) .

ثالثاً:- إمارة الأغالبة (184-296هـ/800-908م)

نشوؤها

ينتسب الأغالبة الى الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي[318] . وهو عربي من قبيلة تميم التي اسهمت في القضاء على الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وكان الأغلب بن سالم من اصحاب أبي مسلم الخراساني ومن اشجع رجاله[319] .

إن مؤسس الإمارة الأغلبية هو إبراهيم بن الأغلب الذي رحل الى مصر بعد وفاة أبيه ، ويذكر ابن

---

[318]- ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، القاهرة،1962م،ص221.

[319]- عبد الرزاق: محمود إسماعيل، الأغالبة، مكتبة رأفت، جامعة عين شمس،1972م،ص19.

عذارى[320] ، أنه تتلمذ على فقهاء مصر إذ كان أحد تلامذة الليث بن سعد ، فقيه مصر (ت175هـ/795م) الذي قال عنه: "ليكونن لهذا الفتى شأن"[321] . وهو ذلك الجندي البارز بين جند مصر الذين لم ترق له الفتن التي ألمت بمصر يوم ذاك فغادرها مع رجاله الى منطقة الزاب في أفريقية ، إذ سيطر عليها بعد أن كسب ود أهلها ورضاء والي أفريقية هرثمة بن أعين الذي أتحفه بالهدايا حتى أقره رسمياً على ولاية الزاب[322] .

ويبدو أن مطامع إبراهيم كانت ولاية أفريقية ، غير أن وجود هرثمة بن أعين كان كفيلاً بأن يحول دون تحقيق هذه المطامع[323] . وكانت أهدافه في تولي أفريقية مقترنة بمساندته وتأييده الخلافة العباسية ، لذلك آزر العكي حين ثار عليه الجند حتى استعاد الولاية على الرغم من سخط القيروانيين[324] .

وكان الخليفة هارون الرشيد قد اعفى هرثمة بن أعين من ولاية أفريقية وعين محمد بن مقاتل العكي والياً على القيروان سنة 181هـ[325] . وكان الاختيار غير موفق ، إذ أخفق العكي تماماً لما عرف عنه من سوء الخلق وفساد السيرة ، فأغظب الجند بسبب قطع أرزاقهم

---

[320]ـ البيان المغرب، 116/1.
[321]ـ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب،ص212–213.
[322]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص235.
[323]ـ عبد الرزاق، الأغالبة،ص21.
[324]ـ المصدر نفسه،ص22.
[325]ـ ابن عذارى ، المصدر السابق، 11/1.

وإساءة معاملتهم[326] ، مما أدى الى أن كرهه أهل القيروان حين هادن البيزنطيين في صقلية ولا طفهم ودأب على أرسال موارد البلاد من النحاس والجلود والسلاح إليهم[327] . وزاد كرههم له عندما تعرض للبهلول بن راشد أحد فقهاء القيروان بالضرب بالسياط حتى الموت ، فناصب فقهاء المالكية العداء[328] .

وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من كسب ود الناس الذين كرهوا ابن العكي والي أفريقية الذي أذهلته المشكلات والاضطرابات السياسية فيها ، فقد كان ابن الأغلب يتمتع بسمعة طيبة لدى الخلافة العباسية بعد أ حسن هرثمة بن أعين والي أفريقية السابق صورته في نظر الخليفة هارون الرشيد كمدافع عن شرعية العباسيين في بلاد المغرب[329] . واشاد بكفايته واخلاصه للخلافة [330] ، وحب الرعية له فكتب له الرشيد العهد بولاية أفريقية في المحرم من عام 184هـ[331] .

وهكذا صار ابراهيم بن الأغلب والياً على أفريقية بإرادة من الخلافة العباسية حفاظاً على وجود

---

[326]ـ المصدر نفسه.
[327]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص22.
[328]ـ الدباغ، معالم الأيمان،206/1ـ207.
[329]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،155/6.
[330]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص276.
[331]ـ ابن خلدون، التاريخ،6/،113.

الخلافة الاسمي في المغرب العربي ، إذ لم يبق لهم في المغرب سوى الخطبة والدعاء للخليفة[332] .

والسؤال هنا: ما هي الدوافع التي جعلت الخلافة العباسية تولي إبراهيم بن الأغلب إفريقية ؟ الحقيقة لم تكن مشكلات الخلافة في المشرق هي السبب ، فحدود الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي كانت قد استقرت بعد أن أمن الرشيد جانب البيزنطيين الذين دفعوا له الجزية[333] وبعد أن تآمر الخزر وأثاروا المتاعب في أرمينية سنة 183هـ أذعنوا للطاعة دون عناء[334] . والبرامكة كانوا لايزالون حتى ذلك الحين يحظون بثقة الرشيد[335] .

ويذهب الدكتور حسين مؤنس[336] ، برأي مفاده أن الأمر يتعلق بسياسة الرشيد التي كانت ترمي الى تصفية الجناح الغربي من الدولة العربية الإسلامية بعد أن نفضت الخلافة يدها من شؤون البحر المتوسط وخرجت من ميدانه .

غيما ينفي الدكتور محمود إسماعيل [337] ، سبباً مباشراً لقيام الدولة الأغلبية ، وهو عرض إبراهيم

---

[332]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص133.
[333]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص29.
[334]ـ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ)، تاريخ الخلفاء، القاهرة،1964م،ص288.
[335]ـ محمود إسماعيل، المصدر السابق.
[336]ـ المسلمون في حوض البحر المتوسط الى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 4،العدد1،ص86.
[337]ـ الأغالبة.

المالي فيما حدث ، إذ أن الرشيد قد منح أحد الشعراء مما لا يزيد على اضعاف هذه الأموال التي تعهد إبراهيم بدفعها للخلافة سنوياً ، بل ليس من شك في أن الحالة المالية للخلافة في عهد الرشيد كانت أحسن بكثير مما كانت عليه أيام المنصور[338] .

ومن ذلك يمكن أن يكون الدافع هو:ـ

1ـ انسلاخ المغربين الأوسط والأقصى عن نفوذ الخلاقة العباسية .

2ـ قيام إمارة الأدارسة وتهديدها بالقضاء على نفوذ الخلافة في أفريقية[339] ، فالأدارسة كانوا يطمعون في توحيد المغرب والمشرق في ظل دولة واحدة .

3ـ كذلك تفاقم فتن الجند في افريقية وتشكيلهم خطراً مستمراً على ولاة القيروان[340] .

كل ذلك دفع الخلافة الى تسليم زمام الأمور في افريقية الى والٍ يشهد ماضيه بالإخلاص لها والعمل على نصرتها وتثبيت نفوذها في المغرب العربي حتى وإن كان أسمياً فقط .

ويبدو أن الخلافة العباسية بعد فشلها في مواجهة الاوضاع السيئة في المغرب أرادت أن تكون

[338]ـ السيوطي، المصدر السابق،ص285ـ286.
[339]ـ الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد(ت في ق4هـ)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن،1970م،ص37.
[340]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص30.

أسرة موالية لها في هذا الجزء وتتحمل الأعباء لكي تنأى هي عن ذلك .

هذا وكانت الخلافة حريصة على الحفاظ على ما تبقى لها من نفوذ في افريقية ، وكان إبراهيم بن الأغلب يراوده أمل الظفر بتأسيس مُلك وراثي . وقد تحققت هذه الآمال بفضل ما وصل إليه من مكانة مرموقة ، وبفضل جيش الزاب الذي مكنه من الظهور على المسرح السياسي كأقوى شخصية تلعب الدور الواضح في أفريقية بعد رحيل هرثمة بن أعين ، هذا فضلاً عن تعلق البربرية كقائد يحقق لهم أمانيهم في الاستقلال الذاتي[341] .

في مقابل ذلك حصل ابن الأغلب على عهد الخليفة هارون الرشيد وموافقته بتثبيته والياً على أفريقية سنة 184هـ ، ومن ثم الاقرار له بتأسيس إمارة وراثية تدين بالولاء السياسي والتبعية الأسمية للعباسيين .

إعلان إمارة الأغالبة

أول أمر أتخذه إبراهيم بن الأغلب بعد وصوله القيروان إعلانه ، إياها عاصمة للإمارة الأغلبية ، ثم اتخذ خطوة أخرى ليدلل على مدى التزامه تجاه الخلافة العباسية ، وإخلاصه وولائه هو بناء مدينة جديدة ، وهي مدينة القصر الأبيض المتوسط ، وموقعها جنوب

[341]ـ المصدر نفسه،ص30ـ31.

القيروان أسماها العباسية ، إذ شرع ببنائها سنة 184هـ[342] .

لقد أتخذ من مدينة العباسية مقراً له ولحاشيته ، إذ اسكن فيها خمسة آلاف من حرسه الخاص السود الذين جيء بهم لخدمته وحمايته[343] .

يبدو أن ابن الأغلب أراد بذلك الابتعاد عن القيروان التي عرفت بكثرة الاضطرابات ومؤامرات الجند والخصوم فيها .

هذا وقد بنى وسطها دار الإمارة والمسجد الجامع وأُحيط بالدواوين ودار السكة ودور سكناها وميادينها ، ثم أحاطها بأسوار حصينة منيعة .

والحق أن ابن الأغلب لم يدخر جهداً في مواجهة الأخطار الخارجية ، إذ بنى القلاع والحصون واتبع من الوسائل ما كفل له الاستمرار في الحكم ولم الأزمات .

أن إبراهيم ابن الأغلب بفضل ما تمتع به من كفاية وشجاعة وتقوى[344] ، وذكاء استطاع أن يقيم إمارة جديدة وإن لم يقدر له أن يوطد دعائمها ، ويقضي على مشكلاتها كافة قدر استطاعته والحفاظ عليها

[342]ـ البلاذري، فتوح البلدان،ص235.

[343]ـ المصدر نفسه.

[344]ـ الدباغ، معالم الأيمان،26/1.

وتسليمها لخلفائه ليسهموا بدورهم في تثبيت كيتنها وتوطيد دعائمها[345] .

استقرار إمارة الأغالبة

لقد هيأ إبراهيم بن الأغلب لخلفائه دولة قائمة ، وإن لم يستطع القضاء على جميع المشكلات التي واجهته ، إلا أنه تمكن من أن يحافظ على تلك الدولة .

وتابع خلفاؤه الجهود التي بذلها وعندما علم أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ينبأ وفاة أبيه ، حتى عاد مسرعاً الى القيروان وتسلم مهام الإمارة ، وذلك في صفر سنة 196هـ[346] . وكان إبراهيم بن الأغلب قد عهد الى أبنه عبد الله وأمر زيادة الله أن يبايع أخيه ، إذ كان عبد الله يواجه مجموعات من البربر بطرابلس ، فعاد لتقلد الإمارة[347] .

تولى أبو العباس عبد الله الإمارة لمدة خنس سنوات (196–201هـ) واتسم عهده بالهدوء والاستقرار في إمارة متكاملة الأجزاء ، لكنه وُصِفَ بأنه مكروهاً من أُسرته ورعيته[348] ، إذ عُرِف بأذلاله أخيه الصغير زيادة الله ، ونكل بأصحابه[349] ، كما تجبر في جمع المال من الناس وأَخذه الضرائب ، ولم يسمع نصائح

---

[345]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص35.
[346]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،105/5.
[347]ـ المصدر نفسه.
[348]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،95/1.
[349]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص36.

الفقهاء ، فكره لذلك من الرعية طوال مدة ولايته حتى توفي في ذي الحجة من سنة 201هـ[350] .

ويبدو أن الاستقرار الذي شهدته الإمارة الأغلبية يعود الى جهود أبيه إبراهيم التي بذلها لبناء الإمارة .

وبويع زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أميراً لإمارة الأغالبة بعد موت أخيه من ذي الحجة سنة 201هـ ، وقد ورث تركة ثقيلة من الأعباء والمتاعب التي خلفها أخوه أبو العباس ، ولم تفلح سياسة بذل المنح والهبات والعطاء[351] وكره فقهاء القيروان إمارة الأغالبة نظراً لسياسة أمرائها. إذ لم تفلح سياسة الاغراء بمناصب الإمارة لغرض كسب ودهم ، ورفضوا الانصياع لهذه المغريات ، وبدأوا يشكلون خطراً على الإمارة ، لعلو مكانتهم وسماع الناس لرأيهم واتباعهم . ومن الجانب الآخر نرى زيادة الله بن إبراهيم كان من أفضل أمراء الأغالبة من حيث القدرة العسكرية والسياسية ، وكان ايضاً محباً للعلماء مقدراً لجهودهم العلمية . ومحباً للفنون المعمارية ، إذ بنى القصور ومراكز الثقافة في مدن القيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وايضاً أسس نواة للأسطول العربي الإسلامي المزود بالفنون الحربية والمعدات العسكرية ، لأن سياستهم كانت تهدف الى توسيع نفوذهم في حوض البحر المتوسط . فقام بسلسلة من الحملات البحرية .

---

[350]ــ ابن الأثير، المصدر السابق،103/1.

[351]ــ أبو العرب، طبقات علماء أفريقية،ص86.

ولتعزيز قوته ومد نفوذه وبسط سيطرته ، واجه زيادة الله الأول الثورات التي خرجت على سلطة الإمارة إذ نكل بأصحابها ، منها:ـ

1ـ ثورة زياد بن سهل في سنة 207هـ إذ حاصر مدينة باجة وكادت أن تسقط في يده لو لا يقظة الأمير وإعداده لجيشه للقضاء عليه . فقضى على هذه الثورة وباءت بالفشل[352] .

2ـ ثورة عمر بن معاوية القيسي حاكم مدينة القصر سنة 208هـ ، وسيطر على القصرين وما حولها ، واستمر في تمرده إلى أن ظفر الأمير به فقتله هو وولديه[353] .

3ـ وبعد التنكيل بعمرو بن معاوية وولديه ، خرج منصور الطنبذي بثورة في سنة 209هـ في تونس[354] ، وقد استغل الطنبذي هذا كره الجند للأمير وحقدهم[355] وعليه فحشدهم لنفسه لاغتصاب الإمارة ، ولذلك هزت ثورته قواعد الإمارة وسيطر على أفريقية كلها باستثناء الساحل وقابس[356] ، وقيل بأنه ضرب السكة[357] .

---

[352]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 124/1.

[353]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص38.

[354]ـ ابن الإبار: محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي(ت658هـ) الحلة السيراء، تحقيق: د. حسين مؤنس، القاهرة،1963م،ص347.

[355]ـ ابن الأثير ،الكامل في التاريخ،185/5.

[356]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص39.

[357]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،130/1.

ولم تحقق هذه الثورة اهدافها بسبب انقسام معسكر الطنبذي هذا ، وخرج قادته عن أمره . وتمكن زيادة الله من استعادة البلاد بلداً بلداً حتى اغتيل الطنبذي على يد القائد عامر بن نافع[358]، والتفت حوله الجند وتزعمهم بعد موت الطنبذي ، وأخذ دوره في مواجهة الإمارة ولم يصف الجو لزيادة الله إلا بعد موت عامر بن نافع هذا عام 214هـ ، وفي موته وضعت نهاية للحرب في أفريقية[359] .

الإنجازات الحضارية للأمير زيادة الله الأول

1ـ كان رجل بناء وتشييد ، إذ شغف بالفنون والعمارة والأدب .

2ـ ففي المجال الاقتصادي ، أبطل ما بدأه أخيه عبد الله الذي قطع العُشر حباً وجعله ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب[360] .

3ـ نجح في كسب ولاء البربر فانضووا تحت لوائه في جيش الإمارة[361] .

4ـ استمال الفقهاء وكسب ثقتهم بعد أن كانوا يناصبون الإمارة العداء ، فاهتم بمنصب القضاء وقصره على فقهاء المالكية[362] .

---

[358]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،215/5.
[359]ـ المصدر نفسه.
[360]ـ ابن عذارى، المصدر السابق،121/1.
[361]ـ المصدر نفسه،129/1.
[362]ـ الدباغ، معالم الأيمان،26/2.

5ـ قام ببناء المساجد والربط ، وأعاد بناء مسجد سيدي عقبة في القيروان عام 222هـ دون أن يغير كثيراً من نظامه أو حدوده[363] ، حتى انه بالغ في تجميله فصار آية فنية رائعة أثارت إعجاب المعاصرين ، وامتدت شهرة هندسته وزخرفته إلى مسامع البيزنطيين[364] . كما قام بتشييد رباط سوسة وقنطرة أبي الربيع ، وعدت من مظاهر سياسته التي جعلته يكسب من الناس عن طريق ارضاء الفقهاء .

6ـ وفي الجانب العسكري شروعه في فتح جزيرة صقلية سنة212هـ واصبحت الجزيرة منذ ذلك التاريخ هدفاً للحملات التجارية .

هذا وحكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله الأول سنة223هـ عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء ، وذلك أمر طبيعي ، فالأمراء الأوائل كرسوا قوتهم لدفع الأخطاء المتأتية من المعارضين والمناوئين والثوار والجند المتمردين ، وارساء دعائم الإمارة على أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسه داخلية تقوم على الإصلاح وإرضاء الرعية وتحقيق مصالحها[365] .

ومن دلائل القوة والنفوذ الذي تمتع به هؤلاء الأمراء الذين حكموا الإمارة بعد زيادة الله الأول.

---

[363]ـ فكري: أحمد، مسجد القيروان، مطبعة المعارف، مصر،1355هـ/1936م،ص67.

[364]ـ المصدر نفسه،ص77.

[365]ـ سوادي، دراسات في تاريخ المغرب،ص61.

مواصلة هيمنتهم البحرية على جزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى ، كذلك اهتمامهم بالجانب العمراني ، إذ شادوا مدينة العباسية سنة227هـ بالقرب من مدينة تاهرة[366]. وكانت هذه تعبيراً عن الالتزام بالعهد والتبعية للخلافة العباسية في بغداد .

وأنشأ الأمير إبراهيم بن أحمد(261ـ289هـ) مدينة رقادة سنة263هـ وبنى فيها مسجد الفتح الجامع سنة264هـ[367] ، وقصوراً ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب بعد أن انتقلوا إليها من العباسية[368] . وصارت هذه المدينة بمرور الزمن مركزاً مهماً من مراكز التجارة والعلم والحضارة[369] .

وعلى الرغم من توسعهم في مجال العمارة وبنائهم المدن إلا إنهم احتفظوا بمدينة القيروان كقاعدة لهم وعاصمة للمغرب ، واحتفظت بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري مهم . بل وصلت إلى أوج تطورها وتوسعها العمراني وتقدمها الثقافي والاجتماعي وازدهارها الاقتصادي[370] . وتشير خطط القيروان ومنشآتها المعمارية على عهد الأغالبة بما تعطي

[366]ـ ابن خلدون، التاريخ،200/4. وهي ليست العباسية التي بناها إبراهيم بن الأغلب سنة184هـ جنوبي القيروان وصارت عاصمة لدولته وسميت بالقصر .

[367]ـ المصدر نفسه،201/4.

[368]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب،ص139.

[369]ـ سوادي، المصدر السابق،ص66.

[370]ـ المصدر نفسه.

تصوراً واضحاً عن اهمية ذلك التقدم الذي شهدته . فيذكر أن طول شارعها الأعظم المسمى(السماط) قد بلغ ميلين وثلث ، ؟أي ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات ونصف ، وهذا دليل توسعها وضخامتها وازدياد مرافقها وتشابك المصالح فيها[371] . ويعود هذا الاهتمام بالمدينة من قبل الأغالبة إلى مركزها السياسي وموقعها الجغرافي كمحطة لطرق المواصلات الرئيسة في المغرب[372] .

جهود الأغالبة في فتح جزيرة صقلية

لقد كان هدف الخلافة العباسية منذ وقت مبكر التفكير في السيطرة على البحر المتوسط لغرض تأمين الحماية للسواحل العربية ، سواء أكانت في الشام أو في الشمال الأفريقي أو المغرب بعامة ، وكانت أولى المعارك التي خاضها المسلمون في البحر لهذا الغرض هي معركة ذات الصواري عام 34هـ في خلافة عثمان بن عفان((رضي الله عنه)) .

وفي عهد إمارة الأغالبة وضع امرائها السيطرة على البحر المتوسط نصب أعينهم وذلك لأمرين:ـ

الأول:ـ هو مواصلة الحملات الجهادية لنشر الإسلام في جزر البحر المتوسط بعامة .

الثاني:ـ تأمين حدود الدولة العربية الإسلامية ، وحماية النشاط التجاري للعرب المسلمين .

---

(371)ـ الجنحاني، المغرب الإسلامي،ص49،53.
(372)ـ المصدر نفسه،ص53.

وقام زيادة الله بسلسلة من الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط . ففي سنة201هـ جهز حملة على جزيرة سردانية[373] . وفي سنة204هـ جهز حملة بقيادة عمر بن عبد الله بن الأغلب على جزيرة صقلية[374] .

وفي سنة 206هـ توجهت قطعات زيادة الله البحرية وأسطوله الى الجزر القريبة من تونس ومنها إلى سردانية[375] ، لكن هذه الحملات على الرغم من كونها لم تحقق كامل أهدافها إلا أنها اطلعت العرب في أفريقية على جزر البحر المتوسط ، ولاسيما صقلية وسردانية . واعقبتها سنة 212هـ حملة بحرية كبيرة استهدفت فتح صقلية ، وذلك لأهمية جزيرة صقلية من حيث:ــ

1ـ أهمية موقعها الجغرافي لصد غارات الروم البيزنطيين على سواحل الإمارة الأغلبية[376].

2ـ لدريء خطر المتآمرين وأعداء الأغالبة الذين أتخذوا جزيرة صقلية ملجأً ومستقراً لهم يهددون منها أمن واستقرار الإمارة[377] .

---

[373]ــ المالكي، رياض النفوس،400/1.
[374]ــ ابن الابار، الحلة السيراء،181/1.
[375]ــ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،97/1,
[376]ــ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،324/6.
[377]ــ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص146.

3ـ والهدف الأهم هو أنها تُعد بالنسبة للعرب حلقة الوصل بين العالم العربي الإسلامي واوربا . والمعبر المهم لهم لأوربا لغرض القيام بالأعمال الجهادية ونشر الدين الإسلامي .

4ـ فضلاً عن الظروف السيئة التي كان يعانيها سكان الجزيرة من حكم البيزنطيين وثقل الضرائب المفروضة على كاهلهم واستلاب موارد ممتلكاتهم في ظل نظام إقطاعي جائر ، جعلهم على استعداد لقبول أي تغيير يحقق لهم إصلاح أحوالهم وتحررهم من أوضاعهم السيئة.

ولتأكيد الهدف الجهادي من وراء الفتح ، جاء اختيار القاضي أسد بن الفرات قائداً للحملة[378]. وأسعد بن الفرات من أعلام الفقه المالكي في مدينة القيروان بل وفي المغرب العربي بعامة . ولذلك جاء اختياره ليكون مشجعاً ودافعاً للأقدام على التضحية من أجل فتح الجزيرة .

ومن جانب آخر نجد أن الأمير زيادة الله قد استفاد من الانشقاق الذي حصل بالقيادة البيزنطية إذ أعلن (فيمي) وهو قائد الأسطول البيزنطي في صقلية تمرده على الإمبراطور ميخائيل الثاني واستيلاءه على سرقوصة ونصب نفسه ملكاً على صقلية ، ولكن اتباعه خرجوا عليه وتمكن والي مدينة (بلرم) من هزيمة فيمي واستيلائه على سرقوصة فالتجأ فيمي إلى الأغالبة ،

[378]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 103/1.

واتصل بالأمير زيادة الله وهون عليه أمر فتح صقلية ، وأظهر مساعدته له بملك الجزيرة[379] .

وكذلك انسلاخ جزيرة اقر يطش عن السيطرة البيزنطية على يد الثوار الربضيين المهاجرين من الأندلس الذين كانوا قد لجأوا إلى الإسكندرية وهاجروا إليها من الإسكندرية بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي التي زعزعت القوة البيزنطية العسكرية في البحر المتوسط[380] .

ولتنفيذ عملية الفتح تمت الاستعدادات العسكرية للحملة التي بلغ تعدادها سبعمائة فارس وعشرة آلاف راجل سوى المراكب التي تعود للقائد فيمي[381] .

ودارت بين الجيشين معركة مرج بلاطة نسبة إلى قائد الجيش البيزنطي المدعو بلاطة . ونتيجة لاستبسال جيش المسلمين وموقف أسد بن الفرات القيادي الشجاع فقد انهزم البيزنطيون وقتل قائدهم بلاطة في 17 ربيع الثاني سنة 212هـ ، ولأهمية هذه المعركة كتب الأمير زيادة الله يبشر الخليفة المأمون بانتصار المسلمين وافتتاح صقلية على يد القائد أسد بن الفرات[382] ، الذي توفى أثناء حصاره على سرقوصة

---

[379]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،417/3.
[380]ـ المقري: أحمد بن محمد التلمساني(ت1041هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت،1968م،ج329/1.
[381]ـ الدباغ، معالم الأيمان،187/2.
[382]ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،335/6.

سنة 213هـ/838م مع عدد كبير من المسلمين بعد تفشي وباء في المعسكر العربي المحاصر لسرقوصة[383] .

وتولى قيادة الجيوش الإسلامية بعد وفاة أسد بن الفرات ، عدد من القادة أولهم القائد عثمان بن قرهب الذي جعل للعرب موطئ قدم ثانية في صقلية بفتحه مدينة بلرم في سنة 216هـ[384] . ثم تسلم القيادة أبو فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب[385] . وخلفه أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله سنة 222هـ الذي استمرت ولايته عشر سنوات ، وكلاهما قادا عدة حملات ناجحة على المواقع البيزنطية في الجزيرة[386] . وبعد وفاة أبي الأغلب إبراهيم سنة 236هـ أقر الأغالبة على جيوش الفتح في صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب[387] . الذي واصل هو الآخر حملاته العسكرية على معاقل البيزنطيين في جزيرة صقلية ومنها مدينة قصريانة الحصينة[388] ، وكرد فعل على هذا الانتصار العربي الإسلامي وجه الامبراطور ميخائيل الثالث 300مركباً مشحوناً بالعسكر لاستعادة قصريانة من ايدي المسلمين ، إلا أن حملته فشلت ودمرت مراكبه وغنم العرب مائة مركب منها بعد هزيمة البيزنطيين ، وبذلك فرض العرب سيادتهم على ثلثي اراضي الجزيرة ولم يبق بيد

---

(383)ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي،ص229.
(384)ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص149.
(385)ـ المصدر نفسه.
(386)ـ خليل السامرائي، المصدر السابق،ص232ـ233.
(387)ـ محمد سعيد رضا، المصدر السابق.
(388)ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،60/7.

البيزنطيين سوى الساحل الشرقي فقط حول مدينة سرقوصة وبعض الجهات الداخلية[389] .

اما سرقوصة معقل البيزنطيين فقد فتح عنوة من قبل القائد العربي جعفر بن محمد سنة 264هـ بعد حصار له دام تسعة أشهر ، وبعدها لم يبق للبيزنطيين في الجزيرة سوى مدينتي طبرمين وقطانيه وبعض المناطق المحدودة في شرق الجزيرة التي تمت السيطرة عليها في عملية جهادية واسعة النطاق قادها الأمير إبراهيم بن أحمد الثاني الأغلبي في ولايته على صقلية التي دامت من سنة 261هـ ولغاية 289هـ[390] ، وبذلك أصبحت جزيرة صقلية بأسرها بيد العرب المسلمين وقد استغرق فتحها اكثر من 75 سنة وهي مدة ليست بالقصيرة . ويحق لنا أن نسأل: لماذا طال أمد الحرب في صقلية حتى استغرقت هذه المدة ؟

ويبدو أن فتح جزيرة صقلية قد ارتبط أشد الارتباط بتطور الأحوال في كل من أفريقية والدولة البيزنطية .

ويرجح الدكتور خليل السامرائي وزملاؤه[391] تأخر الفتح للأسباب الآتية:ـ

1ـ المقاومة الشديدة التي كانت تواجهها قوات الفتح العربي الإسلامي في الجزيرة من قبل قوات بطريق الجزيرة المدعومة بالإمدادات البيزنطية الكبيرة التي

---

[389]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي ،ص233ـ234.
[390]ـ محمد سعيد رضا، المصدر السابق،ص151.
[391]ـ تاريخ المغرب العربي، ص235ـ236.

كان يرسل بها اباطرة البيزنطيين على عجل لإسناد القوات المحلية المحاربة على أرض صقلية .

2ـ بعد المسافة بين جزيرة صقلية والبر الأفريقي ، مما أضعف سرعة إمدادات الأغالبة لقواتهم في الجزيرة .

3ـ ارتباط نشاط قوات الفتح الإسلامي في صقلية بالأوضاع الداخلية للإمارة الأغلبية بخاصة وبأفريقية بعامة ، وكذلك يرتبط بأوضاع المسلمين في صقلية ذاتها ، فاستقرارهم كان يسرع في حركة الفتح وحالات الاضطراب توقف عملياتهم العسكرية وتؤخر حركة الفتح ، وهكذا بالنسبة إلى الولاة والقادة المكلفين بالفتح . فكلما كانوا من القادة الأقوياء القادرين على إدارة الأمور في الجزيرة كانت عمليات الفتح تسير بسرعة وتحقق نتائج حاسمة ، والعكس يؤدي إلى شل العمليات وإضعاف قدراتها . وقد تمخض هذا النضال الطويل عن نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

1ـ لقد أصبحت صقلية بلداً إسلامياً تابعاً للإمارة الأغلبية ، وغدا حاكم الجزيرة في بلرم يُعيَن من قبل أمير القيروان[392] . وتحقق للعرب المسلمين سيادتهم على البحر المتوسط بعامة ويتخذ من صقلية قاعدة مهمة للهجوم على الجزر والمضايق القريبة .

2ـ فتح العرب لجزيرة صقلية ادى إلى انتعاش اقتصادي تجاري ، إذ نشطت حركة التجارة العربية بين

---

[392]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص204.

المشرق وبلاد المغرب وبين شمال أفريقيا وإيطاليا وباقي دول جنوب أوربا المطلة على البحر المتوسط .

3ـ شهدت الأحوال الاجتماعية في صقلية تطوراً كبيراً ، فقد اختفى العنصر البيزنطي من الجزيرة وتحررت طبقة العبيد بدخولهم الإسلام ، وظهرت عناصر جديدة من العرب والبربر والنصارى الذين كانوا يشكلون أكثرية في الجزيرة ، وقد اعتنق كثير منهم الإسلام بمرور الزمن ، وكذلك من اليهود وأقوام من اليونان واللمبارد والصقالبة والسود وغيرهم .

4ـ أصبحت صقلية مركزاً مهماً للحركة العلمية والأدبية في البحر المتوسط الزاخرة بالعلماء الذين أخذوا يتنقلون بين أقطار المشرق والمغرب من خلال رحلاتهم العلمية ، ويؤلفون الكتب في شتى أنواع العلوم الدينية والدنيوية ، وإليهم يعود الفضل في استعمال الورق الأبيض لأول مرة في أوربا .
5ـ لقد خضعت صقلية للأنظمة المالية والاقتصادية الإسلامية المتعارف عليها في أفريقيا[393] . وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب[394] . وأدخل الأغالبة أنواعاً جديدة من المزروعات إلى الجزيرة كالليمون والبرتقال والقصب والأرز

[393]ـ ابن حوقل، صورة الأرض،ص84.
[394]ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،135/1.

والقطن[395] وايضاً ازدهرت الصناعة وبخاصةً صناعة السفن والجلود والحبال والسكر والورق[396] .

6ـ ومن أهم نتائج الفتح هي حل مشكلات إمارة الأغالبة الداخلية ، فلا يخفى أن فتن الجند المتوالية شغلت الأغالبة الأوائل وهددت بالقضاء على إمارتهم ، فاستطاع الأمراء التخلص من مثيريها بإرسالهم إلى ميدان الحرب في الجزيرة ، وتحولت أحقادهم ضد إمارة الأغالبة إلى نوع من الحماس الديني له أبعد الأثر في اذكاء روحهم الجهادية[397] .

علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية

إن قيام إمارة الأغالبة كان مرتبطاً أشد الارتباط بعاملين رئيسيين:ـ

الأول:ـ ما ساد المغرب العربي من نزعات الاستقلال والتبعية عن الخلافة الإسلامية في بغداد التي ادت إلى اقتطاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى عن سلطان الخلافة العباسية وتشكيل خطر دائم هدد بانفصال أفريقية وزوال النفوذ العباسي كلياً من المغرب .

---

[395]ـ محمود إسماعيل، الأغالبة،ص205.
[396]ـ المصدر نفسه.
[397]ـ محمود إسماعيل , الأغالبة,ص205.

ثانياً:ـ استجابة الخلافة لهذا التحدي ، وإقرارها قيام أُسرة عربية موالية تتمتع بالاستقرار الذاتي في اطار من الولاء والتبعية لها[398] .

ويبدو أن هذا الأجراء كان بمثابة الحل الأمثل لمشكلات الخلافة العباسية في المغرب ، والضمان الوحيد لحفظ نفوذها في المغرب .

وفي ضوء هذين العاملين والولاء والتبعية للخلافة والاستقلال الداخلي للإمارة تحدد وضع إمارة الأغالبة وعلاقاتها مع الخلافة العباسية[399] .

هذا وقد دأبت الخلافة من جانبها على الاعتراف بالأمراء الأغالبة عن طريق إرسال تقليد الإمارة ، وما يرتبط به من رسوم[400] وإنها لم تتوان في تقديم العون للأمراء الأغالبة في اوقات الأزمات بالقدر الذي سمحت به ظروفها .

وقد درج الأمراء الأغالبة على الاعتراف بالتبعية وإظهار الولاء للخلافة فأسماء الخلفاء تذكر في الخطبة وتنقش على السكة ، وايضاً كانت الأموال السنوية ترسل بانتظام من القيروان ؟إلى بغداد فضلاً عن الهدايا في الأعياد ، ولم يتخذوا لأنفسهم ما يخرجهم عن اطار التبعية كما فعل الأدارسة مثلاً حينما لقبوا أنفسهم بالأئمة ، وكذلك الرستميون[401] . وانتهجوا في

---

[398]ـ المصدر نفسه.

[399]ـ المصدر نفسه ،ص50

[400]ـ المصدر نفسه،ص51.

[401]ـ المصدر نفسه،ص51ـ52.

سياستهم الخارجية نهجاً يتلاءم مع الأصول العامة للسياسة العباسية .

وهنا يمكن القول بأن إمارة الأغالبة تمتعت بدور فريد لا يدخل في اطار المألوف من النظم الإسلامية . ويؤكد حقيقة وضع الأغالبة ما ذكره النويري بقوله: ".....هذه أول دولة قامت بأفريقية ، جرى عليها اسم الدولة وكان من قبلهم عمالاً إذا مات أحدهم أو صدر منه ما يوجب العزل عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وإنما كانت ملوكها تراعي أوامر الدولة العباسية ، وتعرف لها حق الفضل والأمر ، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية ولو ارادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت يخالفوهم.....وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يروه من اولادهم وإخوتهم"[402].

وفي ضوء ذلك لم يكن الأغالبة مستقلين تماما بأفريقيةً ، وإنما مارسوا سلطتهم الداخلية سالكين في سياستهم الخارجية نهج الخلافة العباسية ومن ناحية أخرى لم يكن للخلفاء العباسيين نفوذ فعال في أفريقية ولم يهتموا من جانبهم بتأكيد هذا النفوذ ، ولم يحاولوا إقحام انفسهم في الأمور الداخلية واكتفوا منهم بالولاء والود .

---

[402]ـ شهاب الدين عبد الوهاب(ت733هـ) نهاية الأرب في فنون العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة،ص262ـ370.

ابرز الأمراء الأغالبة وسني حكمهم

1- إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي (184-196هـ/800-811م)

2- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (196-201هـ/811-816م)

3- زيادة الله بن إبراهيم (201- 223هـ/816-837م)

4- أبو عقال الأغلب بن إبراهيم (223-226هـ/837--840م)

5- أبو العباس محمد الأول بن عقال (226-242هـ/840- 856م)

6- أبو إبراهيم أحمد بن محمد (242- 249هـ/856-863م)

7- أبو محمد زيادة الله الثاني بن أحمد (249-250هـ/863- 864م)

8- أبو الغرانيق محمد الثاني بن زيادة الله (250-261هـ/864- 875م)

9- إبراهيم الثاني بن محمد (261-289هـ/875-902م)

10- أبو العباس عبد الله الثاني بن إبراهيم (289-290هـ/902- 903م)

11ـ أبو مصر زيادة الله الثالث بن عبد الله (290ـ 296هـ/903ـ 909م)[403]

نهاية إمارة الأغالبة

لقد دب الصراع بين أمراء الأغالبة المتأخرين وأصبح واضحاً في المدة الواقعة بين (231ـ 290هـ) ولاسيما بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (226ـ 242هـ) وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب[404] وبين الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم وأبنه زيادة الله الثالث الذي انتهى بمقتل الأب وتولى زيادة الله بن إبراهيم بن إبراهيم الإمارة سنة (290ـ 292هـ) وهي السنة التي وضع فيها العبيديون نهاية لحكم الأغالبة ، إذ لم يقو زيادة الله على الصمود في وجه حشود جيشهم الذي تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدءاً بمدينة طبنه وبلزمة وباجاية وتيمبس وقفصة وبلاد قسطيلية والأربس حتى مدينة القصرين[405] وأمام هذا التقدم الظافر قرر زيادة الله الهروب إلى مصر ، فخرج متخفياً ليلاً مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة ، وافرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجواهر ورحل من رقادة[406] متوجهاً إلى مصر تاركاً إمارته أمام الزحف العبيدي إذ أُسدِلَ الستار عن الإمارة الأغلبية سنة 296هـ .

---

(403)ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب العربي،ص141ـ142.
(404)ـ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،108/1ـ109.
(405)ـ ابن خلدون، التاريخ،446/4.
(406)ـ ابن خلدون، التاريخ،ص446/4.

الإمارة العبيدية (296- 567هـ/909- 1071م)

نشوؤها

عرفت الإمارة بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله بن المهدي سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة (259هـ) في مدينة سالمية وقيل في الكوفة[407] ، وهو آخر الأئمة المستورين لدى الإسماعيلية[408] والإمام المستور عندهم مفاده أن يستتر قسم من أئمتهم بتأثير الظروف مما ترتب عليه قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور العبيديين[409] لذا عرفت هذه الإمارة في الكتابات التاريخية في بلاد المغرب باسم الإمارة العبيدية وأهلها

---

[407]ـ ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم(ت681هـ) وفيات الأعيان ،حققه د. يوسف علي طويل، د. مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت،1419هـ/1998م،ج97/3.

[408]ـ لقد زعم العبيديون أن نسبهم يرجع إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن الامام علي بن ابي طالب(رضي الله عنه) .ابن خلكان، المصدر نفسه،97/3-98.

[409]ـ الشهرستاني، الملل والنحل،5/2

باسم العبيديين[410] . لقد بدأ عهد نشوء هذه الإمارة بإرسال داعيتين من مقرهم في سالمية في بلاد المشرق بين حمص وحماه إلى بلاد المغرب وهما عبد الله بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني، وأبو سفيان الحسن بن القاسم لاستمالة قبائل المغرب لدعوتهم بستر وحذر ، فاستطاع هذان الداعيتان أن يكسبا أنصاراً في مدن متعددة من المغرب الأدنى مثل كتالة ونفطة ومجانة وسبيبة وباجاية ، وغدت فيما بعد ركيزة للحركة العبيدية السياسية لاسيما وإن المغرب الأقصى قد شهد نجاح دعوة الأدارسة العلويين في استمالة البربر وتأسيس إمارتهم قبل العبيديين بقرن من الزمن تقريباً . مما كان يشكل في الأساس عاملاً مساعداً لنجاح العبيديين لكونهما ينتميان للعلويين على حسب ادعائهم هم . وبعد وفاة الداعيتين عبد الله الحلواني وأبو سفيان بن القاسم ، اللذين سبق ذكرهما ، ارسل عبيد الله بن المهدي داعية ثالثة يعرف باسم (الداعي) وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا ، الذي كان يكنى (بأبي عبد الله) وكانت له ألقاب عدة منها ، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصوفي والأحوازي[411] . وكان قد ارسل إلى بلاد المغرب ليقود دعوتهم هناك ، ويقول أبن

---

[410]ـ لقد ذُكر عن أبي القاسم بن طبا طبا العلوي أنه قال: لا والله الذي لا إله إلا هو ما عُبيد الله الشيعي منا ولا بيننا وبينه نسب. وفضح أمره كذلك القاضي أبو بكر بن الطيب الباقئي نسبه في (كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار) وذكر أنهم قرامطة. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،158/1ـ159.

[411]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب ،ص157.

عذارى[412]: أن أبا عبد الله التقى بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز واستمالتهم لدعوته ، اتفق معهم على الرحيل إلى بلاد المغرب يحشد كتامة وبقية القبائل المغربية الأخرى مثل عجيسة وزواوة ، ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه البلاد النائية عن نفوذ العباسيين ، وبوصول أبي عبد الله الداعي إلى المغرب تبدأ مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته وتقصيه للأوضاع والظروف التي كانت تمر بها هذه ، إذ استطاع أن يوحد صفوف قبيلة كتامة للنهوض بأعباء الدعوة من الناحية العسكرية ، وكان يقول لهم "أنا لا أدعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت" وبهذه الطريقة جمع حوله الأعوان ليجابه أول قوة واجهته في بلاد المغرب الأدنى هي قوة الأغالبة بقيادة الأمير إبراهيم بن أحمد (261ـ 289هـ) الذي اثارت مخاوفه نمط الردود التي أجاب بها الداعي على رسالة الأمير الأغلبي له[413] . إلا أن موقف الأغالبة هذا لم يكن فعالاً ضد الداعي لأنهم كانوا مشغولين بخلافاتهم ، إذ فر آخر أمرائهم زيادة الله إلى المشرق بعد أن قتل أخاه أبو عبد الله محمد الملقب بالأحول ، واضعاً بذلك بداية النهاية لأسرة الأغالبة في بلاد المغرب[414] . وتهيأت الفرصة بذلك لأبي عبد الله الداعي تنفيذ خطته بالإجهاز على جيش الأغالبة إذ التقى به وهزمه في موقعة كينونة سنة 289هـ ، مما سهل عليه اجتياح مدن الأغالبة في كسطيف وبجاية

---

(412)ـ البيان المغرب،1/158ـ163.

(413)ـ محمد سعيد رضا، المصدر السابق ،ص158.

(414)ـ المصدر نفسه.

وقرطاجنة ونيسة والقصرين كما تمكن من الاستيلاء على قسنطينة وقفصة ، ثم دخلت جيوشهم مدينة الأربس واحتلت مدينة رقادة إذ تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي على القيروان[415] .

وبعد أن استقرت الأمور ومهد أبو عبد الله الداعي أوضاع المغرب الأدنى كتب إلى عبيد الله المهدي يدعوه للقدوم إلى هذه البلاد وبالفعل فقد رحل عبيد الله متخفياً إلى سجلماسة عاصمة المدراريين ، إذ اكرم أميرها اليسع بن مدرار[416] . ثم جاءه كتاب من زيادة الله ويقال كتاب المكتفي بأنه المهدي داعيته في كتامة حبسه اليسع وضيق عليه[417] . لكن أبا عبد الله المحتسب استطاع أن يحرره من سجنه بعد أن أَلحق الهزيمة بأمير سجلماسة وبذلك اصبحت سجلماسة في اطار النفوذ العبيدي ، وبعدها توجه عبيد الله المهدي إلى رقادة سنة 296هـ واعلن عن قيام الإمارة العبيدية بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه واظهروا له السرور وسألوه تجديد الأمان لهم[418] .

الأمراء العبيديون

[415]ـ سوادي ،دراسات في تاريخ المغرب العربي،ص208ـ209.
[416]ـ ابن خلدون، التاريخ،34/4.
[417]ـ المصدر نفسه.
[418]ـ محمد سعيد رضا ، تاريخ المغرب والأندلس، ص159ـ160.

1ـ عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر[419] (297ـ322هـ/909ـ934م) وهو أول الأمراء العبيديين بعد اعلان إمارتهم بالمغرب ، ومن التدابير التي اتخذها:ـ

أـ قتل عبيد الله المهدي ، أبا عبد الله الداعي ، ابرز قادته ومؤسس إمارته[420] ، إذ عمد إلى تجريده من سلطاته وابعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً قم الاجهاز عليه واغتياله بخطة اعدها عبيد الله المهدي[421] .

ب ـ اتخذ لقب ((المهدي أمير المؤمنين))

ت ـ اسند لرجاله من حاشيته مناصب مهمة مثل الأشراف على بيت المال ، وقضاء رقادة وديوان الكتابة والخراج والحجابة .

ث ـ ضرب السكة وثبت الموالي وابناء العبيد في ديوان العطاء .

جـ ـ اتخاذه عاصمة جديدة لإمارته وسماها المهدية وقال عنها: "تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار"[422]

---

[419]ـ ابن خلدون، التاريخ،31/4.
[420]ـ المصدر نفسه،37/4.
[421]ـ المصدر نفسه،37/4.
[422]ـ ابن خلدون, التاريخ ،38/4.

والمهدية كانت تقع موقع حصين يحيط بها البحر من ثلاث جهان[423] .

حـ ـ انشأ داراً لصناعة السفن .

هذا وعلى الرغم من الاستقرار الذي شهدته الإمارة في عهده إلا إنه اثار حفيظة بعض بطون كتامة بعد مقتل ابي عبد الله الداعي وأخيه ابي العباس[424] . وقام عدد من كبراء أهل القيروان بتدبير مؤامرة لقتله . على اثرها ثار أهل طرابلس على عامل العبيديين[425] . على الرغم من أن العبيديين تمكنوا من اخماد تلك الثورات ، إلا إنها ادت إلى زعزعة أمن واستقرارها ، وحدوث انشقاق بين بُناة الإمارة ، واخص رجالها وتصدع عقيدتهم .

2ـ القائم أبو القاسم محمد (322ـ334هـ/934ـ945م) .

3ـ المنصور ابو طاهر إسماعيل (334ـ341هـ/945ـ952م) .

---

[423]ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص25،29.
[424]ـ ابن خلدون، المصدر السابق،37/4.
[425]ـ لقبال، دور كتامة،ص332.

4- المعز ابو تميم معد (341-365هـ/952-975م) وفي عهده سنة 362هـ انتقل العبيديون إلى مصر وتلقبوا بالفاطميين[426]

العبيديون وعلاقتهم بالخلافة العباسية

لقد كان العباسيون ينظرون إلى العبيديين وإقامة إمارة مستقلة لهم في بلاد المغرب العربي على انها تحد سافر لنفوذ الخلافة العباسية الروحي والسياسي . وعملوا على وقف هذا النفوذ بحث رعاياهم على الوقوف صفاً واحداً وراء الأغالبة المطيعين للخليفة العباسي ، وقد عملوا على تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة ورسومها الدينية والسياسية والعسكرية لمواجهة هذا الخطر . لكن بعد ما اصيب الأغالبة بالهزيمة اثر انشغالهم بالظروف السيئة في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة ، وتسلط العنصر التركي وهيمنته على مقدرات الخلافة ,

واصبح موقف الخلافة العباسية اكثر وضوحاً من العبيديين بعد محاولة مد العبيديين نفوذهم نحو جزيرة صقلية , إذ تحركوا بجدية اكثر لإيقاف إجراءاتهم في صقلية بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي على صقلية ، والقاضي اسحاق بن ابي المنهال ، فاضطر العبيديون إلى تعيين والٍ آخر هو علي بن عمر

[426]- محمد سعيد رضا، تاريخ التغرب والأندلس،ص164-165.

البلوي سنة 299هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي اثمرت بانتفاضة ضد العبيديين التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله ، فقد آلت إلى الإطاحة بالوالي العبيدي واعيدت الخطبة والدعوة العباسية . وبذلك يذكر ابن عذارى ، إن أهل صقلية قدموا على انفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300هـ وبعث إليه الخليفة العباسي بألوية سوداء ، وخلع وطوق ذهب[427] .

واستمرت المناوشات بين العباسيين والعبيديين قائمة حتى سنة 336هـ حين ظفر العبيديون بفرض سيطرتهم التامة على الجزيرة ، وتولت اسرة عربية جديدة هي اسرة الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي التي استمرت حتى الاحتلال النورماندي للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري . لكن هدف العبيديين الستراتيجي اصبح واضحاً بمحاولتهم السيطرة على ولايتي الشام والحجاز عن طريق احتلال مصر ، وبسط نفوذهم السياسي والديني عليها ، ومن اجل هذا الهدف تقدمت جيوش العبيديين سنة 358هـ إلى مصر في عهد المعز لدين الله العبيدي بقيادة ابي الحسن جوهر بن عبد الله الصقلبي ، ودخلت مدينة الإسكندرية من دون مقاومة ، ثم تقدمت نحو مدينة الفسطاط وفرضت سيطرتها على المدينة بالرغم من المقاومة التي ابداها الإخشيديون الذين كانوا يحكمون مصر باسم العباسيين[428] . وقطعوا الخطبة للخليفة العباسي المطيع

[427]ـ البيان المغرب، 168/1.

[428]ـ المصدر نفسه، 288/1.

لله ، والدعوة للمعز لدين الله العبيدي ولآبائه الذي أوجد لعائلته النسب العلوي وتسمى بالخليفة الفاطمي ، وازال شعار العباسيين وسك دنانير سجل عليها تاريخ الفتح ، واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين[429] . واتخذوا مصر مقراً لهم واسسوا مدينة القاهرة سنة 358هـ وجعلوها عاصمة لهم[430] .

واخذ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي ، فتقدموا لاحتلال بلاد الشام لكونها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر يمتد نحو حاضرة العباسيين بغداد[431] . وكذلك نحو الحجاز ، لكن مع ذلك اصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي تهيمن روحياً وسياسياً على العالم الإسلامي على الرغم من ان قوة جديدة ظهرت هي الخلافة الفاطمية .

خامساً:ـ إمارة المرابطين (427ـ541هـ/1032ـ1146م)

نشوؤها

ينتسب المرابطون إلى قبائل صنهاجة[432] ، التي كانت تقطن الصحراء الغربية ((شنقيط)) أو ما يسمى اليوم بموريتانيا ، وفي هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضاً وماشية

---

(429)ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص168.

(430)ـ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية،ص112ـ113.

(431)ـ ابن عذارى، المصدر السابق،231/1.

(432)ـ المصدر نفسه،212.

ونباتاً والتي تحدها من الجنوب بلاد السودان ((مملكة غانة الكبيرة)) ومن الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق نهر النيجر ، عندما يلتوي شمالاً إلى جهة تمبكتون ومن الشمال منطقة سجلماسة التي يقال لها اليوم تافيلالت ، وكان يعيش فيها قبائل صنهاجة اللثام ، ومن اشهرها قبيلة لمتونه في شمال الصحراء وتليها جنوباً قبيلة مسوقة ثم قبيلة جدالة بالقرب من نهر السنغال والنيجر وساحل المحيط الأطلسي .

لقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق السرايا العسكرية التي ارسلها حكام المغرب الأوائل إلى هذه المنطقة , وعن طريق التجار المسلمين الذين يمرون عبر هذه البلاد في طريقهم إلى السودان . لكن على الرغم من ذلك ظلت هذه القبائل ضعيفة الإسلام , متفرقة الكلمة حتى اوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[433] . عندما حدثت فيها تلك الانتفاضة الدينية الإصلاحية التي ألفت بين قلوبهم , ووحدت صفوفهم على اسس دينية وأخلاقية صحيحة, ويرجع الفضل في تحقيق هذه الوحدة السياسية والدينية إلى زعيم سياسي هو الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[434] زعيم الملثمين ، وإلى زعيم ديني آخر هو الفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي. وكلا الرجلين كانا من اصل صنهاجي .

وقد تم الاتصال بين هذين الزعيمين عندما اتصل بيحيى بن إبراهيم الجدالي في طريق عودته من

[433]ـ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي،ص478.
[434]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص173.

الحج سنة 427هـ في مدينة القيروان بأحد اقطاب المالكية , وهو الفقيه أبو عمران الفاسي الغفجومي , وقد عرض عليه الأمير أن يرسل معه من يتولى هداية قومه وإصلاحهم وإخراجهم من حالة الجهل والتأخر , فأحال أبو عمران الفاسي أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السود في اقصى المغرب هو الفقيه وأجاج بن زلوا للمطي الذي كان يقيم في رباط هناك في مدينة نفيس يسمى دار المرابطين . ومن هذا الرباط ارسل وأجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم .

لقد استطاع هذا الفقيه بفضل ذكائه وإخلاصه وحزمه أن يخلق من قبائل الملثمين قوة دينية سلفية تقوم على اساسين هما:ــ

الأول:ــ الأيمان الراسخ وإقامة شعائر الإسلام على وفق ما جاءت به السُنة النبوية المطهرة .

الثاني:ــ التمسك بمذهب مالك بن انس فيما يرجعون إليه من قوانين دينية ودنيوية , ويبدو أن عبد الله بن ياسين اراد أن يتوج اتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية فسماهم بتلك التسمية الخالدة "المرابطون"[435] .

وبعد وفاة الزعيم الجدالي يحيى بن إبراهيم , أرادت قبيلة جدالة ان تعرض على قبائل صنهاجة أميراً آخر من جدالة خلفاً له إلا ان الفقيه عبد الله بن ياسين

[435]ــ ابن خلدون، التاريخ،183/6.

ابى ان يخضع لمثل هذه النزعة القبيلة الضيقة , رأى بثاقب بصره ان المستقبل لقبيلة لمتونه بحكم موقعها الجغرافي المتحكم في الطريق الشمالي المؤدي إلى المغرب , وبحكم شجاعتها وشدة مراسها في القتال , ولأنها كانت اكثر قبائل صنهاجة انقياداً له واشدها طاعة لله تعالى[436] .

لهذا كله نقل عبد الله بن ياسين القيادة من جدالة إلى لمتونه ، وقلد الأمير اللمتوني أبا زكريا يحيى بن عمر قيادة صنهاجة .

وصار اسم لمتونه مرادفاً لكلمة المرابطين لكونهم المجاهدين في سبيل الله , وبذلك يقول صاحب كتاب الحلل الموشية "والمرابطون هم لمتونه"[437] كما صار زعماؤها امراء لهذه الدولة المرابطية , إذ تولى قيادتها بعد استشهاد يحيى بن عمر اللمتوني[438] , الذي قاد مع عبد الله بن ياسين المرابطين إلى خارج الصحراء .

ومع ما ذكره المؤرخون المعاصرون من اسباب سياسية واقتصادية لخروج المرابطين من الصحراء , فأنه يبقى العامل الديني هو السبب الأساس في خروجهم من الصحراء نحو المغرب شمالاً ونحو السودان جنوباً ، لأنهم كانوا اصحاب رسالة دينية سامية

---

(436)ـ محمد سعيد ,المصدر السابق,ص174.

(437)ـ مجهول: منسوب لأبن الخطيب, الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية, تونس،1329هـ.

(438)ـ ابن ابي زرع, الأنيس المطرب,ص128.

يريدون تحقيقها بنشر الإسلام وتوحيد المغرب , ولاسيما ظروف المغرب المضطربة يومذاك كانت توجب عليهم الجهاد الديني في البلاد المغربية التي يصفها ابن عذارى المراكشي بقوله: "وكان اهل المغرب يتولون امور بلادهم إلى ان تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس"[439] . وعلى كل حال فأن قوات المرابطين انطلقت نحو المغرب الاقصى بعد ان خضعت لها قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعة التي احصاها ابن الخطيب بقوله: "انها تقرب من سبعين قبيلة"[440] فاستطاعوا الاستيلاء على بلاد المصامدة والسوس سنة 448هـ وعاصمتها ((تارودانت)) .

واجتاز يوسف بن تاشفين وهو يومذاك ابرز قادة المرابطين[441] جبال الأطلس الغربي ثم تقدمت جيوشهم الكثيفة نحو مدينة أغمات وما حولها سنة 449هـ , وتقدمت نحو بلاد المصامدة, وبذلك حقق المرابطون انتصاراتهم على الوثنيين في تلك المناطق ونشروا الإسلام الصحيح في اوساطهم , ودعوا إلى محاربة قبيلة برغواطة في اقليم تامسنا والريف الغربي ، وكان من نتيجة هذه المعارك ان قُتل عبد الله بن ياسين سنة 450هـ . ويذكر ان عبد الله هذا جمع اصحابه وحثهم على الوحدة والتماسك قبل ان يموت . ثم عين سليمان بن حدو فقيها للمرابطين بعد وفاة عبد الله بن ياسين , بينما استمر الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني

---

[439]ـ البيان المغرب،10/4.

[440]ـ اعمال الأعمال،ص225.

[441]ـ ابن خلدون، التاريخ،183/6.

يدير دفة الشؤون السياسية والعسكرية ، إلا ان سليمان بن حدو لم يلبث ان توفى سنة 451هـ[442] , فلم يعين خلفاً في الشؤون الدينية ، بل اضيفت إلى مهمات ابي بكر بن عمر اللمتوني الذي استمر يواصل سياسة عبد الله بن ياسين في الجهاد ضد برغواطة حتى عادت إلى الإسلام[443] .

ثم عاد الأمير أبو بكر إلى أغمات , وبعد ان استقر فيها مدة بلغه فتنة نشبت بين لمتونه وجدالة ومسوقة فتوجه إلى الصحراء بغية فض النزاع واستخلف بالشمال ابن عمه يوسف بن تاشفين حوالي سنة 452هـ , واستطاع أبو بكر ان يتوغل في فتح السودان بعد ان سوى النزاع بين لمتونه وخصومها , ثم رجع إلى الشمال سنة 453هـ[444] , فالقاه ابن عمه يوسف بن تاشفين في جيش عظيم ، وقدم إليه هدايا ثمينة , فعرف أبو بكر ان الأمور قد استقرت ليوسف فلم يطمع في ملك لنفسه وتنازل ليوسف عن ولاية المغرب , ثم رجع إلى الصحراء بصحبة الجيش الذي كان يؤلفه الملثمون , وعاش أبو بكر يجاهد في بلاد السودان ويعمل على نشر الإسلام حتى توفى هناك سنة 480هـ[445] .

امراء المرابطين

[442]ـ محمد سعيد ,تاريخ المغرب والأندلس,ص177.
[443]ـ ابن عذارى المراكشي, البيان المغرب,17/4.
[444]ـ ابن خلدون، التاريخ،184/6.
[445]ـ المصدر نفسه.

1ـ يحيى بن إبراهيم الجدالي (427ـ440-/1032ـ1048م)

2ـ يحيى بن عمر بن وركوت اللمتوني (440ـ447هـ/1048ـ1056م)

3ـ ابو بكر بن عمر بن وركوت اللمتوني (448ـ453هـ/1056ـ1061م) ويمثل عهده بدء المرحلة الأولى من إمارة المرابطين .

4ـ يوسف بن تاشفين بن إبراهيم (453ـ500هـ/1061ـ1106م)

5ـ علي بن يوسف بن تاشفين (500ـ537هـ/1106ـ1143م)

6ـ تاشفين بن علي بن يوسف (537ـ541هـ/1143ـ1146م)

7ـ إبراهيم بن تاشفين بن علي (541هـ/1146م) تولاها اشهراً من هذه السنة .

8ـ اسحق بن علي بن يوسف من 541هـ وإلى نهاية الإمارة المرابطية وقيام إمارة الموحدين[446]

ابرز امراء المرابطين

يوسف بن تاشفين

---

[446]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص182.

صار يوسف بن تاشفين اميراً على بلاد المغرب بصفة رسمية منذ أن تنازل له ابو بكر بن عمر اللمتوني عن الإمارة سنة 453هـ ، وقد اتصف يوسف بصفات هي:ـ

1ـ كثير التواضع والقناعة والحياء ، وهو ممن تقبلوا دعوة ابن ياسين عن طواعية وإخلاص .

2ـ شديد الذكاء وقوي العزيمة .

3ـ جمع صنهاجة وزناته والمصامدة وكون منهم جيشاً كبيراً عدته 100 ألف فارس .

4ـ تمكن من فتح مدينة فاس سنة 455هـ وحاصر قلعة فازاز حتى تم له فتح جميع بلاد الريف إلى طنجة سنة465هـ[447] . وتمكن سنة462هـ من دخول فاس وهدم الأسوار الفاصلة بين العدوتين الأندلسية والعدوة القروية[448] .

5ـ تابع فتوحه في اقصى الشمال ووجه همه بالذات إلى طنجة وفتحها سنة470هـ[449] على يد القائد اللمتوني صالح بن عمران بعد قتال عنيف قتل فيه سكوت البرغواطي وهو شيخ في التسعين من عمره[450] .

---

[447]ـ ابن خلدون، التاريخ،185/6.
[448]ـ محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس،ص179.
[449]ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،185/6.
[450]ـ المصدر نفسه.

وفي سنة477هـ فتح المرابطين مدينة سبته على يد المعز بن يوسف بن تاشفين وبمساعدة اسطول المعز بن عباد صاحب إشبيلية[451] .

وكان يوسف بن تاشفين قد ارسل قائده مزدلي بن تلكان بن محمد بن وركوت سنة472هـ إلى المغرب الأوسط , فاستولى على احواز تلمسان , ثم زحف يوسف بقواته سنة474هـ نحو مدينة وجدة ففتحها وفتح مدينة نكور , وايضاً فتح تلمسان في السنة نفسها .

وشملت فتوحه أعمال شلف[452] . ثم رحل إلى الأندلس ليواصل جهاده ضد الممالك الإسبانية الشمالية.

أما جهاد المرابطين في منطقة السودان , فقد ظل مستمراً بعد استشهاد ابي بكر عمر اللمتوني سنة480هـ إذ اعتنق الامراء الغانيون الإسلام ودخلوا تحت سيادة المرابطين , واخذوا على عاتقهم القيام بالعمليات الجهادية , ونشر الإسلام بين القبائل المغربية في تلك المناطق نيابة عن المرابطين الذين نالوا بدورهم مباركة خلفاء بني العباس لهم على أعمالهم الجهادية في تلك المجاهيل , كما تشير إلى ذلك رسالة الخليفة المستظهر بالله إلى علي بن تاشفين سنة512هـ التي جاء فيها: "ما انهيته من توفر الأجناد ومثابرتك على الجهاد لدفع ادناس الكفرة مما يليك من البلاد , فأنك وطائفتك من حزب الله ...."[453] وبذلك امتد نفوذ المرابطين إلى

---

[451]ـ المصدر نفسه،185/6-187.

[452]ـ المصدر نفسه, 185/6.

[453]ـ ابن خلدون, التاريخ،185/6.

بلاد غانة وسيطروا على مناجم الذهب ومكامن الملح في الصحراء الكبرى , وحرروا تجارتهم من الضرائب والمكوس التي كانت تفرض عليهم , واحتفظوا بالضرائب الشرعية كالزكاة والأعشار وأخماس الغنائم والجزية تمشياً مع تعاليم الإسلام[454] .

بناء مدينة مراكش

من ابرز اعمال يوسف بن تاشفين العمرانية مراكش[455] إذ اختطها سنة454هـ على سفح جبل جيليز قريبة من المناطق الصحراوية التي هي موطن المرابطين الأول . وكان موقعها على طريق القوافل التجارية المقبلة من الصحراء الذاهبة إليها .

انتهى من بنائها سنة459هـ فاستوطنها الناس بعد أن تملك أراضيها بالشراء[456] . واسس مسجدها الجامع وقصبة صغبرة تخزن أمواله وسلاحه[457] . وذكر أن ابن تاشفين نفسه كان يعمل في الطين والبناء

---

[454]ـ عبد العزيز بنعبد الله, تاريخ الحضارة المغربية,107/1.

[455]ـ مراكش: وتعني في اللهجة الأمازيغية البربرية , بقية الأسود, وقيل نسبة إلى عبد أسود كان يقطع الطريق على السابلة ,وقيل بل سميت مراكش لكثرة اللصوص في المنطقة فكان الناس يخاطب بعضهم بعضاً(مراكش) أي(أخي مسرعاً) قد بعث بهذا الاسم .محمد سعيد رضا, تاريخ المغرب والأندلس,ص183.

[456]ـ ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبد الله مجد بن عبد الله(ت776هـ) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام, نشر ليفي بروفنسال, تحت عنوان(تاريخ اسبانيا الإسلامية) دار الكشوف, بيروت,1956م,ص234.

[457]ـ ابن ابي زرع, الأنيس المطرب,ص89.

مع الفعلة والخدم لتشييد المسجد[458] , غير أنه لم يؤسس سورها بل سورها فيما بعد ابنه علي بن يوسف سنة515هـ بسور شمل على عدة أبواب منها: باب أغمات وباب وكالة وباب الدباغين وباب الصالحة وباب الشريعة . وجلب إليها المياه بحفر الآبار ثم بنيت الدور والمنشآت العمرانية الأخرى كالمدارس والأسواق وغيرها , ويعد المرابطون أول من أسس المدارس في المغرب العربي[459] . وبنوا القناطر واشهرها قنطرة تانسيفت التي يبلغ طولها (400متر) وقد جددت على عهد الموحدين , ولا تزال موصلة بين مراكش والطرق النافذة منها إلى الشمال .

هذا وقد حافظت مدينة مراكش على مكانتها وسمعتها حتى عهد الموحدين وارتفع شأنها وعلت مكانتها بعد أن جلبوا إليها الماء لسقاية بساتينها , واقيمت فيها المنشآت العظيمة ومنها المشافي (البيمارستانات) , وكان اعظم بيمارستان اقيم فيها إذ وُصف بأنه اعظم ما اقيم في العالم الإسلامي , وقد سمي(بدار الفرج) ويقع في شرق المسجد الجامع .

المرابطون وعلاقتهم بالخلافة العباسية

كانت علاقة المرابطين بالخلافة العباسية علاقة وطيدة وحسنة , فلم يتلقب يوسف بن تاشفين بألقاب الخلافة , ورفض ان يتلقب بلقب أمير المؤمنين , إذ اجتمعت القبائل بأشياخها على الامير يوسف وقالوا

---

[458]ـ إبراهيم حركات, المغرب عبر التاريخ,223/1.

[459]ـ المصدر نفسه،224/1-225.

له: "انت خليفة الله في المغرب وحقك اكبر من ان تدعى بالأمير إلا بأمير المؤمنين"[460] وكان سبب رفضه على إنه لقب خلافي .

وعندما سُئل عن سبب رفضه ذلك قال لهم: "وحاشا الله ان أتسمى بهذا الاسم , إنما يتسمى به الخلفاء وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب"[461] وهذا اعتراف بتبعية المرابطين للعباسيين , لذلك استخدم المرابطون السواد شعار العباسيين في ملابسهم واعلامهم[462] وكان ابن تاشفين يدعو لبني العباس على المنابر . وكان قد اطلق على نفسه أمير المسلمين , فأمر الكُتاب ان يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه[463] .

وايضاً لقب بناصر الدين[464] . وكتب إلى الخليفة العباسي المقتدى بالله يطلب منه الخلع والأعلام السود والتقليد , فأرسل له الخليفة ما أراد[465] .

ونفقش المرابطون اسماء أمرائهم على السكة سنة450هـ إلى جانب اسم الخليفة العباسي[466] .

---

[460]ـ ابن عذارى المراكشي, البيان المغرب,27/4.
[461]ـ المصدر نفسه,27/4–28.
[462]ـ السيد عبد العزيز سالم, المغرب الكبير,717/2.
[463]ـ ابن عذارى, المصدر السابق,28/4.
[464]ـ ابن الأثير, الكامل في التاريخ,57/1.
[465]ـ المصدر نفسه,56/1,
[466]ـ المصدر نفسه,51/1.

إذن العلاقة كانت علاقة طيبة أقر بها المرابطون كما أقروا بتابعيتهم للخلافة العباسية .

سادساً:ـ دولة الموحدين (541–668هـ/1143–1270م)

نشأت الدولة

يعود تأسيس دولة الموحدين إلى ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت[467] . الذي أقام دعوته على اساس (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فذكر إنه: "رحل إلى المشرق واخذ من علمائه مذهب الشيخ ابي الحسن الأشعري ومتأخري اصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسُنة , ثم عاد إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وسمى اتباعه بالموحدين"[468] .

---

[467]ـ تومرت: وتعني باللهجة الأمازيغية المغربية (يا فرحتي) ولقد ولد ابن تومرت سنة485هـ في قرية الواحة الخضراء (أبجلي آن وأرغن) وينتسب إلى قبيلة هرتمة من مصمودة وعرف بالمهدي . نشأ وترعرع بالمغرب في جبل السوس في اقصى بلاد المغرب , ثم رحل إلى المشرق طالباً للعلم , فدخل العراق واجتمع بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطرطوشي .

[468]ـ السلاوي, الاستقصا,140/1.

لقد نشأت هذه الدولة بعد الثورة التي اعلنها ابن تومرت على المرابطين سنة514هـ وتحولت حركته الدينية الإصلاحية إلى حركة سياسية .

وقد مثلت حركة المهدي بن تومرت معركة قبلية داخلية قامت بين فريقين من القبائل البربرية وهما: قبيلة لمتونة ويمثلها (المرابطون) وقبيلة هرغة من مصمودة ويمثلها (الموحدون)[469] .

لقد ارتكزت دعوة ابن تومرت على عامل ديني مهم وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[470] والانطلاق من مبدأ الجهاد في سبيل الله , واحياء السنة النبوية المطهرة , ومحاربة البدع والخرافات ,

لقد قاد ابن تومرت عدة معارك ضد المرابطين , الأمر الذي اتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم على منطقة السوس . وفي عام 518هـ سيطر ابن تومرت على مدينة تينمل[471] التي اتخذها داراً ومعسكراً وقاعدة للانطلاق , وأقام بها رباطاً للعبادة[472] , وأعظم المعارك التي خاضها ابن تومرت ضد المرابطين هي التي وضع خططها سنة 524هـ والتي افضت إلى

---

[469]ـ خليل السامرائي، تاريخ المغرب العربي,ص284.

[470]ـ المراكشي, المعجب في تلخيص اخبار المغرب, ص245ـ246.

[471]ـ تينمل: وتذكر (تين ملل) جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر , بين أولها ومراكش ,سرير ملك بني عبد المؤمن ,بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمى بالمهدي الذي اقام دولة الموحدين . ياقوت الحموي, معجم البلدان,69/2.

[472]ـ خليل السامرائي, المصدر السابق,ص288.

دخول مراكش والقضاء على المرابطين في عاصمتهم[473] .

ويبدو ان ابن تومرت لم يستطع من وضع نهاية الدولة المرابطية لأنهم كانوا قد استنفروا كل أمراء القبائل المغربية الموالية لهم , إذ كثرت حشودهم العسكرية ودارت بين الطرفين اكبر معركة وقعت أمام بستان كبير وسميت بمعركة البحيرة[474] , وقد هُزِم فيها الموحدون بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة , وسقط الرؤساء والقادة معظمهم ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت[475] . وعلى إثر هزيمة الموحدين في هذه المعركة توفي ابن تومرت سنة 524هـ/1130م , وخلفه عبد المؤمن بن علي الكومي على رئاسة الموحدين . وهو من قبيلة كوميه المقيمة بساحل تلمسان[476] .

وهنا بدأت مرحلة جديدة من حياة الدولة الموحدية , إذ الصراع بينهم وبين دولة المرابطين , وبداية تحول في تاريخ الموحدين السياسي , إذ استطاع عبد المؤمن من أن يضع الأساس القوي والمتين للدولة الموحدية , فنظم شؤونها الداخلية وحشد قواتها واستنفرها ضد المرابطين , إذ جرت خلال السنوات

---

(473)ـ محمد سعيد رضا, تاريخ المغرب والأندلس,ص188.

(474)ـ ابن الأثير, الكامل في التاريخ,205/1؛ ابن ابي زرع, الأنيس المطرب,ص114.

(475)ـ اصابه العشرة: وهم الأوائل الذين بايعوه وآمنوا بدعوته , وكان ابن تومرت قد قسم انصاره إلى طبقات بحسب إخلاصهم له .خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي,ص287.

(476)ـ المصدر نفسه,ص290.

526ـ543هـ معارك بينهم كان النصر حليف الموحدين الذين تمكنوا من بسط سلطانهم على مدينتي وهران وتلمسان[477] . وعلى مدينة فاس سنة 540هـ/1146م بعد ان فر واليها يحيى بن ابي بكر الصحراوي إلى طنجة , ثم إلى قرطبة ثم أخذت قوات الموحدين تزحف نحو عاصمة المرابطين مراكش , إذ عبرت نهر تنسيفت وهزموا المرابطين عند جبل جيليز الذي يشرف على مراكش ثم تسلقوا أسوار مراكش واقتحموا المدينة ودخلوها سنة 541هـ/1147م , وقتلوا أمير المرابطين إسحق بن علي بن تاشفين وأعوانه[478] . وفي مدينة مراكش بدأ الموحدون عهداً جديداً إذ أتخذوها عاصمة لهم , وادخلوا عليها إصلاحات كثيرة , وبنوا فيها مسجدهم الجامع , وأتموا جلب المياه ووضعوا أُسقيات لها بقرب دار الحجر[479] .

وبسط الموحدون سيطرتهم على المغرب الأوسط سنة 546هـ/1151م باستيلائهم على المهدية وقلعة بني حماد وباقي مناطق نفوذهم ودخولهم مدينة الجزائر وبجاية مما اضطر يحيى وهو آخر بني حماد أن يفر بأهله ومتاعه قاصداً قسنطينة , فطارده جيش الموحدين ثم اعتقلوه ودخل في طاعتهم واصطحبه عبد المؤمن معه إلى مراكش , ونال احترامهم وتكريمهم له[480] .

[477]ـ ابن ابي زرع, المصدر السابق,ص189.
[478]ـ ابن خلدون, النتاريخ,232/6.
[479]ـ المصدر نفسه.
[480]ـ محمد سعيد رضا, تاريخ المغرب والأندلس,ص191.

وأخذ الموحدون يفكرون في تنفيذ المرحلة الثانية في مخططهم وهي السيطرة على جميع بلاد المغرب العربي , إذ شنوا على المغرب الأدنى حرباً اقتصادية منذ سنة 546هـ[481] كي لا تصل إليها الحاجات الأساسية عن طريق المغرب الأوسط , وفي سنة 554هـ توجه عبد المؤمن بنفسه إلى أفريقية في جيش عدده مائة ألف مقاتل , فاستسلمت له تونس ثم صفاقس وفاس وجبال نفوسة وطرابلس وقفصة وحاصر مدينة المهدية ثلاثة اشهر , ثم استسلمت له سنة 555هـ . وبهذا تم استيلاء الموحدين على بلاد المغرب كافة , واصبحت تحت راية الموحدين من حدود المحيط الأطلسي غرباً إلى برقة شرقاً[482] ويبدو أن وحدة المغرب قد تحققت من جديد بعد أن شهدت احداثاً جعلت منها دولاً متعددة مستقلة كل واحدة بذاتها , فمنها من يتبع الخلافة العباسية ادارياً وسياسياً أو سياسياً فقط , ومنها من انفصل واستقل عن العباسيين .

الموحدون والأندلس

بدأ توسع الموحدين في بلاد الأندلس بعد أن قدم علي بن عيسى بن ميمون قائداً للأسطول المرابطي في مياه قادس , طاعته للموحدين في عام 540هـ اثناء حصار مدينة فاس , وقام هذا القائد بالخطبة في قادس بالأندلس باسم خليفة الموحدين , وكانت هذه أول خطبة

---

[481]ـ مؤنس, معالم تاريخ المغرب والأندلس, القاهرة,1980م,ص190.

[482]ـ إبراهيم حركات, المغرب عبر التاريخ,263/1.

للموحدين بالأندلس[483] , ثم قَدِم على المؤمن بن علي وفد من أهل إشبيلية ورفعوا إليه البيعة مكتوبة بخطهم فاستحسن خليفة الموحدين موقفهم , وقبل طاعتهم , وكان لهذا الطلب اثره فيما بعد في إيثار الموحدين لإشبيلية واتخاذها حاضرة الأندلس في عهدهم .

هذا ويبدو إن عبور الموحدين إلى الأندلس جاء لأجل الحفاظ على كيان دولتهم من جهة والحفاظ على كيان دولة الإسلام في الأندلس من جهة أخرى[484] .

علاقة الموحدين بالخلافة العباسية

لقد كان الموحدون يرون ان لهم الأحقية الكاملة في خلافة المسلمين من غيرهم وذلك بحسب دعوتهم أنهم الأكثر أيماناً واصلبهم دعوةً من سواهم من المسلمين .

وبدا لهم ذلك بعد أن امتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً ومحاولتهم بسط سيطرتهم على مصر وما يليها من المشرق , وكأنهم بذلك يتحدون الخلافة العباسية .

وعندما أمر محمد بن تومرت عبد المؤمن بن علي الكومي أميراً على جيش الموحدين , قال لأتباعه: "أنتم المؤمنون وهذا أميركم"[485] ولقب الموحدون

[483]ـ ابن خلدون, التاريخ,233/6.
[484]ـ خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي ,ص262.
[485]ـ المراكشي , المعجب في تلخيص اخبار المغرب,ص188.

أميرهم بلقب ((أمير المؤمنين)) والعباسيون يتلقبون بهذا اللقب .

وأمر عبد المؤمن بن علي بسك نقود جديدة مربعة الجوانب ومنقوش عليها ((لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله)) وعلى الوجه الآخر ((الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدي إمامنا)) . وإنما هذا يدل على الاستقلال التام على اعتبار أنهم خلفاء على المسلمين في الأرض , ولهم النفوذ الروحي والمعنوي في العالم الإسلامي بدلاً عن الخلفاء العباسيين(486) .

هذا وإن الخطبة للعباسيين استمرت في المغرب "إلى سنة 524هـ/1128م وهي السنة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين , فقطع الخطبة للخليفة المقتفي بالله العباسي , وتلقب بلقب أمير المؤمنين(487) .

وهنا جاءت سياسة الموحدين على الضد من سياسة المرابطين الذين كانوا يدينون بالتبعية للخلافة العباسية . وعليه فلم يعترف الموحدون بالتقليد والاعلام والشارات التي كان يرسلها الخلفاء العباسيون إلى المرابطين سابقاً , ليقطعوا كل صلة بالخلافة العباسية .

ضعف دولة الموحدين وانهيارها

(486)ـ سوادي , دراسات في تاريخ المغرب,ص274.

(487)ـ ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة, المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة ,1963م,5/50–51.

على الرغم مما قام به أمراء الدولة الموحدية من أعمال في سبيل الحفاظ على دولتهم إلا أن هناك عوامل عدة عملت على إضعاف الدولة ونهايتها وتتمثل بالآتي:-

المرحلة الأولى من 581هـ إلى 609هـ

شهدت هذه المرحلة أموراً أدت إلى إضعاف الدولة منها:-

1- التحالف بين بني عانية حكام الجزائر الشرقية (جزر البليار) وهي ميورقة ومنورقة ويابسة, وبين قراقوش وزير القائد صلاح الدين الأيوبي , إذ تم التحالف عام 581هـ , وكان هذا مقاماً أساسياً ضد الموحدين , إذ تم الاتفاق على أن تقسم المنطقة إلى قسمين: قسم من حصة بني غانية ما يقع إلى غربي مدينة بونة وقسم من حصة قراقوش , ما يقع شرقي مدينة بونة[488] .

لقد كان بنو غانية يهدفون من وراء هذا التحالف إلى إعادة إمارة المرابطين وكيانها ومجدها . ويهدف قراقوش إلى أن تكون للأيوبيين نقطة ارتكاز في بلاد المغرب .

2- تآمر بعض افراد البيت الموحدي في عهد يعقوب المنصور الموحدي (580-595هـ) , إذ تآمر عليه أعمامه الذين عارضوا مبايعة ابن أخيهم وأول المتآمرين العم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد المؤمن , وامر المنصور الموحدي بقتله لعله يضع حداً لتآمر

---

[488]- خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي,ص318.

الأقرباء[489] . ثم تآمر العم الثاني أبو الربيع سليمان بن عبد المؤمن الذي كان يُمني نفسه بالخلافة منذ وفاة أخيه يوسف بن عبد المؤمن , ولم يبايع ابن أخيه إلا مكرهاً , وحاول كسب الاتباع والاعوان , إلا أنه فشل فقبضَ عليه ابو زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن وسجن حتى تم قتله في عام 584هـ[490] . واستمر التآمر حتى امتد إلى أخوة الأمير نفسه .

3ـ قيام بعض حركات التمرد ضد الموحدين , مثل حركة عبد الله بن عبد الله الجزيري وهو أندلسي من الجزيرة الخضراء . وكان قد مال إلى التصوف واتخذ من منهج المهدي بن تومرت مبداً في دعوته إلى الإصلاح والعمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[491] . وقد مال إليه الناس بعد ظهوره في مدينة مراكش عام 586هـ وبدأ بنشر آرائه , فكثر حوله الاتباع , فخافه الموحدون وأبعدوه عن مراكش[492] .

ووقعت فتنة سنة 589هـ في بلاد الزاب جنوب افريقية تزعمها الأشل وكانت دعوته القضاء على الظلم والعمل على توفير الخير للرعية والسير على هدي السُنة النبوية المطهرة , والتفت حوله جموع الناس وخاصةً قبائل بني هلال وسُليم , فاهتم بأمره المنصور الموحدي , إذ

---

[489]ـ المصدر نفسه,ص319.

[490]ـ المصدر نفسه.

[491]ـ ابن سعيد المغربي: علي بن موسى(ت673هـ) المغرب في حلى المغرب , تحقيق: شوقي ضيف, القاهرة ,1964م,ج23/1.

[492]ـ خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي,ص320.

أصدر تعاليمه إلى والي بجاية ابي زكريا بتتبع اخباره ومطاردته والقيض عليه[493] .

ثم امتدت التمردات إلى الجيش إذ تمرد محمد بن عبد الكريم القائد الموحدي وهو من كبار قادة الجيش الذي تصدى لقبائل بني هلال وسُليم وغيرها من قبائل العرب في افريقية . وتزامنت حركة محمد بن عبد الكريم هذا مع حركة بني غانية في المغرب العربي الذي احرج الدولة الموحدية واستنفذ طاقتها من اجل التصدي لهذه الحركات , زيادة إلى إنها بادرة خطيرة في دولة الموحدين , إذ ان تمرد القائد محمد يعتبر اول تمرد لقائد في الجيش الموحدي ضد الدولة[494] .

4ـ الفساد الاداري

الفساد الاداري كان عاملاً مؤثراً في جسد دولة الموحدين , إذ وُجِدَ منذ قيامها وزراءَ وعُمال قد فسدت ذممهم على الرغم من ان العقاب الصارم الذي نال أمثال هؤلاء . إلا ان الظاهرة أخذت تستشري في تلك المرحلة[495] . وقد ازداد الفساد الاداري عندما مرت دولة الموحدين بفترة من الضعف ، حكم فيها أمراء

---

[493]ـ المصدر نفسه,ص321.
[494]ـ المصدر نفسه,ص323.
[495]ـ المصدر نفسه,ص324.

ضعفاء , فكان هذا الامر مع مجموعة عوامل أخرى قد عجلت بسقوط الدولة وانهيارها[496] .

5ـ موقعة العقاب سنة 609هـ/1212م

لقد كان لهذه الموقعة الاثر السيء على الدولة الموحدية في كل من الأندلس والمغرب . وكانت بداية النهاية لهذه الدولة , وقد حدثت تلك الموقعة بين جيوش دولة الموحدين بقيادة الناصر الموحدي وجيش ملك قشتالة ومعه جيوش اوربا من طليطلة باتجاه الجنوب وصوب قلعة رباح , وذلك سنة 609هـ/1212م في سهل يقع جنوب غربي حصن العقاب , وعرفت المعركة باسم (وقعة العقاب) ولحقت الهزيمة بالموحدين وقتل منهم خلق كثير[497] .

كانت تلك الموقعة بليغة الأثر بالمسلمين في الأندلس حتى قيل ان نتائج هذه المعركة كانت بداية لضياع قواعد أندلسية مهمة[498] , وقيل انها كانت السبب في هلاك الأندلس[499] .

المرحلة الثانية وتمتد من 609هـ إلى 674هـ

---

[496]ـ المصدر نفسه,ص325.

[497]ـ المراكشي, المعجب في تلخيص اخبار المغرب,ص401.

[498]ـ الحجي , التاريخ الأندلسي,ص494,.

[499]ـ الحميري, الروض المعطار,ص138؛ المقري, نفح الطيب,446/1.

بعد الخسارة الكبيرة التي لحقت بالموحدين في موقعة العقاب , بدأت تتبلور مظاهر الضعف التي عملت على انهيار دولة الموحدين وسقوطها .

وتمثلت مظاهر تلك المرحلة ب:ـ

1ـ بقد عملت الحروب التي حدثت بين بني غانية والموحدين سواء أكانت في بداياتها الأولى أم الثانية على بعثرة جهود الموحدين واستنزاف قدراتهم , مما ادى إلى استهلاكها .

2ـ سوء الأوضاع في الأندلس , واثرها في الموحدين .

ما من شك فيه أن الاضطرابات التي حدثت في الأندلس نتيجةً للتمردات على دولة الموحدين, كتمرد محمد بن هود(614ـ635هـ) وتمرد ابي جهل زيان (626ـ637هـ) وتمرد محمد بن يوسف بن الاحمر (629ـ643هـ) اضعف جانباً مهماً في قوة دولة الموحدين , وسيطرنهم على مدن الأندلس بعامة , مما أدى بالنتيجة إلى ان اصبحت المدن الأندلسية سهلة المنال بيد القوات الإسبانية والاوربية , وهذا كان له انعكاس كبير في الجانب المعنوي والنفسي والعسكري على الموحدين , مما اضعف سلطتهم ومكانتهم في العدوة المغربية .

3ـ مشكلات البيت الموحدي والاطماع السياسية

لقد ظهر الصراع والتناحر السياسي بين افراد البيت الموحدي على كرسي الحكم بعد موت الناصر سنة 610هـ فبويع ابنه يوسف سنة إحدى عشرة وستمئة

للهجرة , وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله , فوقع تحت سيطرة كبار البيت الموحدي وكبار رجال الدولة وشيوخ الموحدين[500] .

ولما هلك المستنصر في عيد الاضحى من سنة عشرين وستمئة بدأ عهد التفكك والانقسامات بين افراد الأسرة الموحدية .

وخلال الفترة من سنة 646ـ674هـ حكم فيها حكام ضعفاء مثل المرتضى ابو حفص عمر بن إبراهيم إسحق , وابو دبوس (ابن عم المرتضى) وإسحق بن ابي إبراهيم . وخلال هذه الفترة كانت الأمور تسير في صالح بني مرين الذين استطاعوا اسقاط دولة الموحدين بسهولة[501] .

دور القبائل العربية والمغربية في اضعاف الدولة وسقوطها

لما كانت دولة الموحدين في سنواتها الاولى , اي في عصر قوتها , استطاعت ان تبسط قوتها على معظم القبائل العربية والقبائل المغربية ووظفتها لخدمة الدولة , وتحقيق المكاسب العسكرية في معاركها الجهادية جميعها التي خاضتها , وبالذات في الأندلس , ولكن لما بدأت بوادر الضعف والانحلال في جسد الدولة , بدأت هذه القبائل تخلق المتاعب للدولة اسهم

---

[500]ـ ابن خلدون, التاريخ,250/6.

[501]ـ المراكشي, المعجب,ص418ـ419.

بعضها في إضعاف هذه الدولة وسقوطها[502] ومن ابرز هذه القبائل:ـ

1ـ بنو مرين: الذين اسسوا دولة لهم في المغرب الأقصى التي عرفت باسم الدولة الوطاسية[503]. علماً ان المرينيين أول الامر كانوا قد اسهموا في معارك الموحدين الجهادية في الأندلس ضد الممالك الإسبانية , لكن نتيجة للضعف الذي دب بالدولة الموحدية استغله المرينيون في دعوة قبائل المغرب إلى الدخول في طاعتهم , فدخلت قبائل هوارة ومكناسة ومديونة وزكارة وغيرها, إذ بايعوا عثمان بن عبد الحق الذي كان أميراً للمرينيين[504] .

2ـ الحفصيون

ينحدر الحفصيون من نسل الشيخ ابي حفص عمر بن يحيى , الذي يعود نسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب[505] ((رضي الله عنه)) وكان هذا من رجالات الدولة الموحدية وضمن الطبقة الاولى في نظام المهدي بن تومرت "طبقة الجماعة"[506] لقد شجعت الظروف التي مرت بها الدولة الموحدية بعض الأمراء الحفصيين على الاستقلال مثل , ابو زكريا الحفصي , ومن تلك الظروف المشكلات والانشقاقات بين افراد البيت الحاكم.

---

[502]ـ خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي,ص331.
[503]ـ خليل السامرائي, تاريخ المغرب العربي,ص331.
[504]ـ المصدر نفسه.
[505]ـ ابن خلدون, التاريخ,275/6 .
[506]ـ خليل السامرائي, المصدر السابق,ص331.

وازداد نفوذ الحفصيون بعد ان قدمت القبائل المغربية ولائها لابي زكريا من جهة , وأفول حكم العباسيين بعد سيطرة المغول على بغداد سنة 656هـ/1258م , حتى صار ابو زكريا يُلقب نفسه بأمير المؤمنين , وخضعت له البلاد المغربية , وذاع صيته في بلاد السودان المغربي[507]

الفصل الخامس

أثر الإسلام في التقدم والنهضة الثقافية

[507]ـ المصدر نفسه,ص338.

والحضارية للمغرب الإسلامي

لقد كان الإسلام ثورة عظيمة لانتشال العرب من واقع الجهل إلى النور , فكان ديناً سامياً جاء للناس كافة من غير تمييز بين أبيض وأسود , ولعل قابلية الشعوب والأمم لاعتناق هذا الدين الذي يساير نزعتها الفطرية وأهدافها الإنسانية كان عاملاً على انتشاره بسرعة في بلاد أفريقية وآسيا , واتاح الوضع الجغرافي لبلاد المغرب لان تكون من أهداف حركة الفتوح الإسلامية .

لقد حمل الإسلام إلى الفرد استقلال شخصيته , فلم يربطه بمعبد أو بكاهن , ولا بكنيسة ولا بأيقونة[508] , وإنما المسلم فرد حر يتحمل مسؤولية نفسه وحده ويخاطب ربه من غير واسطة . فهو في صلاته يتوجه إلى ربه , وهو في حجه يطوف ويسعى لا يلتمس الغفران من أي شخص سوى الله خالقه , وعلى المسلم واجبات يؤديها , له حقوق عليه احترامها واداؤها , فهدى الإسلام الشخص إلى الكمال في تقربه لخالقه عز وجل .

فالإسلام نظام تام يتناول العقيدة والمجتمع والأخلاق , فيقيم وحدة شاملة بين طبيعة الفرد وسلوكه ونظامه الاجتماعي في تحرير كامل وانعتاق شامل لا يمنع الفرد من التطور والتقدم . وهذا هو الإسلام الذي آمن به أهل المغرب[509] واتصفوا به ونصروه ودعوا به وسعوا إلى نشره كمادة للإسلام خلف البحار والمحيطات , لقد استغرقت عملية فتح المغرب العربي للإسلام مدة طويلة من الزمن تقرب من الثمانين سنة , وهي مدة طويلة نسبياً إذا ما قورنت بالعمليات الأخرى في فتح بلاد فارس والأراضي البيزنطية . وقد امتدت العمليات من عام 32هـ وحتى نهاية القرن الأول الهجري .

ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة المكون الاجتماعي لسكان المغرب , من حيث شدة بأسهم

---

[508]ـ السائح: الحسن, دفاعاً عن الثقافة المغربية , نشر وتوزيع دار الكتاب , الدار البيضاء ,1968م,ق42/1.

[509]ـ المصدر نفسه,44/1.

وتشددهم في وجه أي تغيير لعقائدهم من جهة , وسياسة بعض الولاة المسلمين التي أدت إلى نفور بعض عشائر البربر من قبول الدين الجديد من جهة ثانية .

وعليه لم يستقر الإسلام في المغرب بعامة إلا بعد أن ابتعد الولاة عن السياسة المتبعة في تعاملهم مع قبائل البربر , إذ عملوا على اكتساب قلوب البربر عبر تثبيت الإسلام بينهم ومنحهم الأمان , لاسيما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

هذا وقد كانت بيئة المغرب العربي بيئة خصبة صالحة للإنبات الثقافة العربية الإسلامية , إذ أن مواطني المغرب ساميون في الأصل وابناء عمومة مما ساعد على انتشار الإسلام(510) . وقد تلاحمت على أرض المغرب الثقافات القديمة من فينيقية ويونانية ورومانية فضلاً عن ثقافة البلاد الذاتية التي سجلت له الأصالة في هذا الميدان(511) .

ولا أدل على تلك الثقافة من أن أول كتاب وضع في الفلاحة دُوِنَ في بلاد المغرب في العهد القرطاجي من قبل ما كون اليونيقي , وهو من اشهر المختصين في هذا الحقل(512) .

ولسرعة تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع معطيات المنطقة الحضارية والفكرية اتضحت معالمها في اقل من ثلاثة قرون وتجسدت بشكل واضح في

(510)ـ المصدر نفسه,44/1 .
(511)ـ محمد سعيد رضا ,تاريخ المغرب والأندلس,ص5.
(512)ـ إبراهيم حركات, المغرب عبر التاريخ,39/1.

ازدهار العلوم الإنسانية والعلوم الصرفة ونبوغ معاهد العلم والثقافة لتصبح أمهات الجامعات في المدن المغربية ، أمثال جامعة القرويين في مدينة فاس وجامعة القيروان في تونس .

وتجلت بذلك شخصية المغرب الإسلامي الثقافية , منذ بواكير القرن الخامس الهجري , حتى أصبح المغرب يمتلك خصائص علمية وثقافية مميزة جعلت منه في وقت ما قبلة لمحبي العلم والمعرفة من جميع انحاء العالم الإسلامي[513] .

ميادين النهضة الثقافية والعلمية في المغرب العربي

كان لظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية الأثر المهم في حياة العرب العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

لقد وضِعت الأسس الأولى للحياة الفكرية والعلمية في الإسلام على عهد الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) وازدهرت في جميع الأمصار الجديدة والمدن التي نشأت بعد عمليات الفتح في مشرق الدولة العربية الإسلامية ومغربها , وقد تمثلت تلك الميادين في:ـ

أولاً:ـ علوم الدين

القرآن الكريم اصل الشريعة الإسلامية وعمودها الفقري ومصدر المصادر كلها للإسلام , أمن

---

[513]ـ محمد سعيد, المصدر السابق.

جمعه في قلبه , فقد جمع النبوة بين جنبيه كما يقول عبد الله بن عمر[514] . والقرآن الكريم هو سياج اللغة العربية وحاميها الذي حفظ هذه اللغة وشغل المفكرين من العرب والمسلمين ببلاغته وبيانه[515] .

ويقول الشافعي رحمه الله "أقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية"[516] قال تعالى: "ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين"[517] . لقد نال القرآن الكريم جُلَ عناية علماء الأمة تأليفاً وتدريساً , فهو أساس الحضارة والحياة العلمية ومقوماتها , "إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون"[518] , فأصبح القران منذ نزوله , وكذا الحديث النبوي الشريف محور النشاط الفكري للأمة العربية الإسلامية[519]. فنشأت العلوم الدينية, كعلم القراءات , قال تعالى: "وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا"[520] ويعد علم القراءات من أولى العلوم التي نشأت واشرفها منزلة . ونشأ علم التفسير وعلم الحديث والفقه .

---

[514]ـ معروف: ناجي , اصالة الحضارة العربية,ص247.

[515]ـ الرافعي: مصطفى صادق , إعجاز القرآن,ط6, طبعة الاستقامة, القاهرة,1956م,ص63.

[516]ـ أبو عبد الله محمد بن إدريس(ت240هـ) الرسالة , تحقيق أحمد محمد شاكر , القاهرة,1309هـ.

[517]ـ سورة النحل, آية:103.

[518]ـ سورة الزخرف, آية:44.

[519]ـ أمين: أحمد, ضحى الإسلام,11/2.

[520]ـ سورة الإسراء, آية:106.

وكان لعلوم الدين اثره البارز في التقدم العلمي في المغرب بعامة بعد أن توطدت دعائم الإسلام في هذا الجزء المهم من العالم الإسلامي . وقد وطدت الدراسة الإسلامية في المغرب , رحلة المغاربة إلى المشرق بقصد الحج , إذ اتصلوا في المدينة برجال الإسلام ونقلوا علوم الدين ؟إلى أفريقية الشمالية[521] . كما حمل المسلمون المشارقة إلى المغرب أسس تلك الثقافة يبلغونها وينشرونها مقيمين ومرتحلين وداعين بالكلمة وبالموعظة الحسنة في المسجد والميدان وفي السوق والطرقات , فاستجابت البلاد المغربية للتعاليم الإسلامية استجابة نموذجية .

ثانياً:ـ المدارس الفكرية والفقهية

لقد كان لوصول الإسلام إلى المغرب بداية لانطلاق المؤثرات الفكرية التي جاء بها جنود الفتح , وكانت في طليعة تلك المؤثرات المدارس الفقهية , إذ وصلت إلى أرض المغرب مع الحملات العسكرية التي ترافقها مجموعات من الصحابة والتابعين لاجل تعليم سكان المغرب مبادئ الدين الإسلامي[522] .

---

[521]ـ السائح, دفاعاً عن الثقافة المغربية,ص53.

[522]ـ من هؤلاء الصحابة والتابعين ,عبد الرحمن بن ابي بكر ,أبو ذر الغفاري ,فضالة بن عبيد الأنصار , رويفع بن ثابت الأنصاري, معيد بن العباس بن عبد المطلب ,عاصم بن محمد بن الخطاب ,عبد الرحمن المسور بن مخزومة .؟أبو سعيد المقدادي بن عمرو بن ثعلبة ,ربيعة بن عباد الدؤلي . لمزيد من المعلومات انظر: المالكي , رياض النفوس,68/1–81 ؛ الدباغ ,معالم الأيمان,71/1–187.

وقد انتشر المذهب الحنفي في افريقيا , ومن ثم في المغرب بعامة[523] . ومن ابرز العلماء الأحناف الذين تولوا نشره , عبد الله بن المغيرة بن ابي بردة الكناني وهو من التابعين الذي تولى قضاء افريقية (99–123هـ) وكان قد تتلمذ على يد ابي حنيفة النعمان[524] . وقيل أن جماعة من أهل افريقية قد روى عنه , ومنهم القاضي أبو الربيع سليمان بن عمران بن ابي هاشم (183–270هـ)[525] , ويعود الفضل في تثبيت المذهب الحنفي بالقيروان بعد المغيرة إلى بن فروخ , إذ تلقى علومه على يد ابي حنيفة[526] .

هذا وقد اهتم ولاة المغرب بالحركة العلمية في القيروان في العصر العباسي , إذ دعم يزيد بن حاتم , الذي ولاه افريقية الخليفة أبو جعفر المنصور , وكان ذا رأي وحزم وعلم[527] اهتم بالحركة العلمية وشجع العلماء والفقهاء .

وبرزت مدرسة الإمام مالك الفقهية إذ وصلت إلى المغرب بطريقين:ـ

---

(523)ـ عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي(ت544هـ) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك , تحقيق: د. أحمد بكر محمود , منشورات دار مكتبة الحياة , بيروت, دار ملكية الفكر , ليبيا,54/1.

(524)ـ أبو العرب , طبقات علماء افريقية ,161/1.

(525)ـ المصدر نفسه.

(526)ـ المصدر نفسه,107/2.

(527)ـ الرقيق القيرواني , تاريخ افريقية ,ص175.

الطريق الأول:ـ كتاب الإمام مالك (الموطأ)

الطريق الثاني:ـ تلاميذه الذين هم المصدر المهم في نقل مذهب مالك إلى المغرب[528] .

هذا ومن ثبت أركان المذهب المالكي في المغرب بعامة أسد بن الفرات الذي تلقى علومه من مالك مباشرةً[529] وخلال مسيرة التقدم العلمي والفقهي الذي شهدته الساحة الثقافية في المغرب نجد إن المغاربة قد أخذوا يتمسكون بالمذهب المالكي ويبتعدون عن المذهب الحنفي , ويبدو أن ذلك يعود لطبيعة البيئة التي يعيشون فيها التي تشابه البيئة الحجازية , إن غالبية الرحلات والبعثات العلمية كانت إلى المدينة ومكة , ثم خشية أهل العلم الأخذ بالرأي والاجتهاد , وعليه نجدهم قد أسسوا مدرسة الإمام مالك الفقهية .

ثالثاً:ـ اللغة العربية وعلومها

لقد صاغ العرب أفكارهم ومعطيات حضارتهم للإنسانية , من رحم لغتهم العربية , هذه اللغة التي تفردت عندهم بمنزلة كبيرة قبل الإسلام , واستطاعت بعد الإسلام أن تفتح صدرها لتراث الإنسانية الخالدة ومعارف البشرية . وفي بلاد المغرب فإن التقاء المغرب بالإسلام كان هو الحدث الرئيس في حياة

---

[528]ـ أبو زهرة: محمد , مالك ـ حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه , دار الفكر العربي ,1963م,ص229.

[529]ـ أبو العرب, المصدر السابق, 14/1.

المغاربة[530] . إذ حافظ المغرب على إنه أمة مسلمة , لأن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعي سيرت تاريخه وكونت وحدته[531] . وإن لغة الفاتح العربي المسلم ما لبثت أن تغلغلت تلقائياً في سويداء قلوب الجماهير المغربية معززة بدعوة الخوارج ثم الأدارسة , وهنا اكتمل بالمغرب تراث حضاري خاص ليس بالمشرق المحض ولا بالمغرب الصرف وإنما هو مزيج حي إسلامي الروح عربي النفحة[532] .

لقد بدأ المغاربة حياتهم الأدبية ناقلين ومقلدين للمشرق في كل شيء تقريباً . ذكر ابن عذارى: "وكان عقبة بن نافع ترك بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام"[533] كما كان موسى بن نصير قد ترك سبعة وعشرين من العرب المسلمين في المغرب يعلمون المغاربة القرآن الكريم واللغة العربية[534] . هذا ويُعد القرن الثاني الهجري مرحلة التكوين للثقافة العربية الإسلامية في المغرب .

لاشك أن اللغة العربية ايضاً قد انتشرت تدريجياً بين البربر مع انتشار الإسلام بينهم وذلك لكي يتمكنوا من قراءة القرآن وفهم معانيه , وتأدية الصلاة

---

[530]ـ الجندي: أنور , الثقافة العربية الإسلامية في المغرب العربي , وزارة الثقافة والإرشاد القومي , دمشق, العدد32,1964م,ص28.

[531]ـ الجندي, الثقافة العربية الإسلامية,ص29.

[532]ـ بنعبد الله , الفكر واللغة في المغرب , مطبعة الرسالة , مصر ,1969م,ص7,

[533]ـ البيان المغرب,8/1.

[534]ـ المصدر نفسه,43/1.

وفهم تعاليم الإسلام , فالبربر إذن قد تعربوا , كيف لا وإن العروبة والإسلام واحد مكمل للآخر , فلا يصح إسلام بدون العروبة ولا تصح العروبة بدون الإسلام . وعليه نجد أن قبائل المغرب صارت لهم العقلية العربية نفسها وصار يوجد فيهم الفقهاء والشعراء والأدباء , والمذاهب السياسية والدينية المعروفة في الدولة العربية الإسلامية , كذلك صارت حياتهم ومعاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الإسلامية[535] .

رابعاً:ـ الحركات الفكرية والسياسية

1ـ المعتزلة

وهم فرقة إسلامية نشأت في مدينة البصرة على يد واصل بن عطاء(ت131هـ) وكان يحضر مجلس الحسن البصري(ت110هـ) فاعتزله ومجموعته في مسجد البصرة[536] . وقد وجد المعتزلة طريق لهم

[535]ـ العبادي, في تاريخ المغرب والأندلس,ص47.

[536]ـ ابن المرتضى: أحمد بن يحيى(ت840هـ) المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل للقاضي عبد الجبار الهمداني, تحقيق علي سالم النشار وعصام الدين محمد علي ,دار المطبوعات الجامعية, الاسكندرية,1972م,ج10/1.

إلى المغرب العربي[537] , بعد أن حملها العرب المسلمون القادمون من المشرق , من الشام والعراق ومنذ بدايات القرن الثاني الهجري[538] .

وبعد أن اتسع أفق الفكر الاعتزالي في المشرق , وجد طريقاً له إلى المغرب , إذ أرسل واصل بن عطاء , عبد الله بن الحارث إلى المغرب يدعوهم إلى الاعتزال فأجابه خلق كثير , وبدأ نشاط المعتزلة في مدينة القيروان , لكنه يبدو أن المغاربة لم يستسيقوا أفكار المعتزلة حتى وصل بهم الحال إلى تكفيرهم . ففي قصة ابي عثمان الحداد مع فقيه القيروان البهلول بن راشد, قال: "جزت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال , فوقفت اسمع منهم , فبلغ ذلك بهلولاً فلما جئته أقبل علي وجعل يقول: يا محمد بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في القدر , فوقفت إليهم تستمع منهم , واغلظ علي"[539] وجاء الدباغ في قول لأبن فروخ في المعتزلة قوله: "فعلى المعتزلة لعنة قبل يوم الدين وفي يوم الدين , وبعد يوم الدين . وفي طول دهر الداهرين"[540] .

وأول من قاوم الفكر الاعتزالي القاضي أسد بن الفرات , إذ قال فيهم: "أهل البدع , هلكت هوالكهم

---

[537]ـ المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن بن علي(ت346هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر, المكتبة الإسلامية, بيروت,1965م,ج128/1.

[538]ـ عامر السامرائي, الصلات الحضارية,ص163.

[539]ـ ابو العرب, طبقات علماء افريقية ,129/2.

[540]ـ معالم الأيمان,239/1.

يزعمون أن الله عز وجل , خلق كلاماً يقول ذلك الكلام المخلوق: أنا الله لا إله إلا أنا"[541] .

وقيل إنه مات رجل يقال له الرفاء , وكان من اصحاب البهلول بن راشد وكان فاضلاً فحضره عبد الله بن غانم , والبهلول , وابن فروخ , فأتى بجنازته , وجنازة بن صخر المعتزلي , فصلى على الرفاء , ثم قدم بن صخر , فقالوا لأبن غانم , الجنازة فقال كل حي ميت , قدموا دابتي , ولم يصلِ عليه , ثم فيل: لأبن فروخ الجنازة , قال: كل حي ميت , ولم يصلِ عليه , ثم قيل للبهلول الجنازة: فقال مثل ذلك . وهذا ليس بالغريب على المغاربة , إذ هم متمسكون بالكتاب والسُنة ولم يحيدوا عنها . ورأينا كيف هم اعرضوا بعد ذلك عن المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي , لكن بمرور الوقت نجد أن الادراك العقلي والتطور الفكري الذي وصلت إليه معطيات الثقافة المغربية ومنها الاشتغال بالفلسفة ونبوغ الكثير من العلماء , إذ أخذوا يمحصون ويدرسون تلك الأفكار , لذلك نجد القاضي أبا محرز محمد عبد الله الكناني(184ـ214هـ)[542] وهو قاضي القيروان قد مال إلى الاعتزال . هذا وقد حركت الاحتكاكات المباشرة بين المتزمتين من أعمدة الفقه المالكي في المغرب العربي في معرفة العلوم العقلية , فيروى عن البهلول بن راشد , إنه سأل يوماً بعض

(541)ـ المصدر نفسه,165/1.
(542)ـ المالكي, رياض النفوس,274/1.

جلسائه قائلاً "احب أن تذكر لي ما يحتج به القدرية"[543] .

ويبدو أن تثبيت هذا الفكر إنما يعود إلى إمارة الأغالبة لاسيما وإن الخليفة العباسي المأمون قد تبنى أفكارهم في مسألة خلق القرآن , وبما أن الأغالبة كانوا يتبعون للخلافة العباسية فنجد أنهم ثبتوا أفكار المعتزلة لتكون مذهباً مسموحاً للعمل به والجدال والاحتجاج به غير مرفوض .

2ـ الخوارج

وهم فرقة دينية سياسية في الدولة العربية الإسلامية , يقول الشهرستاني: "الخوارج كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً"[544] .

وقد انقسم الخوارج إلى عدة فرق , اختلف المؤرخون في عددها , هذا وبعد أن واجه الخوارج معارضة ومواجهة شديدة بالمشرق أخذوا يبحثون لهم عن ملاذ آمن لنشر أفكارهم , ويكون بعيدا عن متناول يد السلطة السياسية في اختيارهم للمغرب العربي وذلك لبعده عن مركز الخلافة أولاً والسخط الذي يحمله أهل تلك البلاد على الدولة المركزية بسبب سوء معاملة بعض الولاة لهم ثانياً . إذ كانت بلاد المغرب تعاني من

[543]ـ المالكي, رياض النفوس,134/1.
[544]ـ الملل والنحل,115/1.

الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية, بالإضافة إلى انشغال الولاة وتنافسهم على جمع الأموال ارضاءً للسلطة المركزية للاحتفاظ بالمناصب المناطة بهم .

ونجحت اثنتان من فرق الخوارج في المغرب العربي , وهما الإباضية والصفرية , يقول ابن خلدون: "ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق , وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية"[545] فالإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض[546] , أما الخوارج الصفرية فإنما سميت نسبة إلى زياد بن الأصفر[547] .

لقد أثرت دعوة الإباضية تأثيراً كبيراً في قبائل المغرب من البربر وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية نتيجة للسياسات الخاطئة التي كان يقوم بها بعض الولاة , وكانت الظروف في المغرب بعامة مهيئة لتقبل مثل تلك المبادئ والأفكار .

وقد أخذ الإباضية بفتح آفاق العلم من أجل كسب المؤيدين فقاموا بفتح المدارس لتعليم المغاربة القرآن الكريم , وأول مدرسة افتتحها عمر بن يمكتن , وهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري , حتى أصبحت المدرسة مناراً للعلم في المغرب بعامة .

---

[545]ـ تاريخ ابن خلدون,144/6.
[546]ـ هو عبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي .من بيت مرة بن عبيد بن مقاعس. ابن قتيبة الدينوري, المعارف,ص622.
[547]ـ الشهرستاني, المصدر السابق,137/1.

هذا وقد أسس الخوارج الإباضية والصفرية إمارات في المغرب وهذا دليل على نجاحهما في إقناع أهل المغرب بصحة أفكارهم ودعوتهم .

وقد نعم المغرب العربي بفضل تلك الإمارات على اختلاف مذاهبها , فأوجدت نوعاً من الاستقرار والوحدة بين المغاربة , مما دفع الحضارة العربية الإسلامية نحو التقدم والازدهار , وادى إلى ازدياد انتشار الإسلام في أعماق المغرب[548] .

وهكذا نجد أن الفتح العربي الإسلامي للمغرب قد مس حميم الحياة المغربية ونقلها من حال إلى حال , فهو يختلف عن ما كان يعرف بالفتوحات التي سبقت الإسلام , إذ أن بلاد المغرب قد تعرضت لفتوحات سبقت على يد الفينيقيين والرومان والبيزنطيين وسيطروا عليه لمئات السنين, لكنهم لم يحولوا المغرب إلى اقليم روماني أو بيزنطي , بل ظل مجرد احتلال سيطر على مقدرات البلاد ومستغلاً لطاقاته ومستعبداً لأبنائه .

اما الفتح الإسلامي فأنه كان تحريراً للنفس البشرية المغربية بأن خرج بهم من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى التعلم والتقدم , ونتيجة لانتشار الدين الإسلامي نشأ مجتمعاً مغربياً أندمج مع الحاملين والناقلين الجدد للدين الجديد , وبذلك اصبح المغرب العربي جزءاً من رحم الدولة العربية الإسلامية ,

[548]ـ الحريري: محمد عيسى, الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي,ط3, دار القلم, الكويت,1987م,ص214.

وصار لبلاد المغرب طابعه العربي الإسلامي وحتى اللحظة .

وهذا التحول الجديد في المغرب , كانت له آثاره الإيجابية فيما بعد على فتح الأندلس , ونشر تعاليم الدين الإسلامي لتصبح اوربا قاب قوسين أو ادنى من النور الجديد نور الإسلام , وكان الفضل في ايصال الإسلام إلى اوربا وهم قبائل المغرب الذين حملوا مبادءه مجاهدون ومرتحلون عبروا المضيق لبناء مجتمع إسلامي جديد ما زال طابعه يغلف الحياة في إسبانيا . وإنما ذلك بفضل قوة رجال البربر وبأسهم من قبائل المغرب , كيف لا وأول قائد عبر المضيق هو طارق بن زياد وهو بربري الأصل , لكن عقيدته الإسلامية مكنته أن يتحمل مسؤولية نشر الإسلام والتأسيس له في الجانب الأوربي .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير: ابو الحسن علي بن ابي الكرم (ت630هـ)

1ـ الكامل في التاريخ , دار الكتب العلمية , بيروت ,1987م .

ابن الابار: محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي (ت658هـ)

2ـ الحلة السيراء , تحقيق د. حسين مؤنس , القاهرة ,1963م .

ابن ابي زرع: ابو الحسن عبد الله الفاسي (ت720هـ)

3ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس , الرباط, 1073م .

ابن ابي دينار: ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم (ت1092هـ)

4ـ المؤنس في اخبار افريقية وتونس , تحقيق محمد شمام , المكتبة العتيقة , تونس ,1967م.

أحمد: علي

5ـ تاريخ المغرب القديم والإسلامي , مطبعة الداودي , دمشق ,2007م .

الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد (ت560هـ)
6ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق , روما , ايطاليا (ب. ت)

الأصطخري: ابو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت ق4هـ)

7ـ مسالك الممالك , مطبعة بريل , لندن ,1927م .

الباروني: سليمان بن عبد الله

8ـ مختصر تاريخ الإباضية , مطبعة تونس ,1938م .

البكري: ابو عبد الله (ت487هـ)

9ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب , باريس ,1911م .

البلاذري: أحمد بن يحيى (279هـ)

10ـ فتوح البلدان , عنى بمراجعته رضوان محمد رضوان , دار الكتب العلمية , بيروت, 1978م .

بنعبد الله: عبد العزيز

11ـ معطيات الحضارة المغربية , الرباط ,1963م ,

12ـ تاريخ الحضارة المغربية .

13ـ تطور الفكر واللغة في المغرب , مطبعة الرسالة , مصر ,1969م .

بولم: دتيز

14ـ الحضارات الافريقية , ترجمة نسيم نصار ,ط2, بيروت ,1982م .

بن يعمر: علي يحيى

15ـ نشأة المذهب الإباضي , القاهرة ,1964م .

ابن تغري بردي: جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت874هـ)

16ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة , 1963م ,

الجزنائي: ابو الحسن علي (ت أواخر ق8هـ)

17ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس , الجزائر ,1923م .

الجنحاني: الحبيب

18ـ المغرب الإسلامي

الجندي: أنور

19ـ الثقافة العربية الإسلامية في المغرب العربي , وزارة الثقافة والإرشاد القومي , دمشق, 1964م ,ع32 .

جوليان: أندريه

20ـ تاريخ افريقية الشمالية حتى الفتح العربي , باريس ,1951م .

الحجي: عبد الرحمن علي

21ـ التاريخ الأندلسي , دار القلم ,دمشق ـ بيروت , دار القلم , الكويت ـ الرياض,1396هـ/1976م .

حركات: إبراهيم

22ـ المغرب عبر التاريخ , دار السلمي , دار البيضاء ,1965م .

الحريري: محمد عيسى

23ـ الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ,ط3, دار القلم , الكويت ,1987م .

ابن حزم الأندلسي: علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ)

24ـ جمهرة انساب العرب , القاهرة ,1962م .

25ـ فضائل الأندلس وأهلها , دار الكتاب الجديد , بيروت ,1387هـ/1968م .

حسن: إبراهيم حسن

26ـ تاريخ الدولة الفاطمية , القاهرة , 1958م .

الحميري: عبد المنعم البستي (ت710هـ)

27ـ الروض المعطار في خبر الأقطار , تحقيق إحسان عباس , طبعة بيروت ,1975م.

ابن حوقل: محمد بن علي النصيبي (ت367هـ)

28ـ صورة الأرض , بيروت (ب. ت)

ابن الخطيب: لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت776هـ)

29ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام , نشر ليفي بروفنسال تحت عنوان (تاريخ إسبانيا الإسلامية) دار الكشوف , بيروت ,1956م .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت881هـ)

30ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) طبعة بولاق ,1284هـ .

ابن خلكان: ابو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ)

31ـ وفيات الأعيان , حققه د. يوسف علي طويل ود. مريم قاسم طويل , دار الكتب العلمية , بيروت ,1419هـ/1998م .

الدباغ: عبد الرحمن الأنصاري (ت696هـ)

32ـ معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان , تونس , 1230هـ .

الرافعي: مصطفى صادق

33ـ إعجاز القرآن ,ط6, مطبعة الاستقامة , القاهرة ,1956م .

رضا: محمد سعيد , محمد بشير العامري

34ـ تاريخ المغرب والأندلس في العصور الإسلامية ,

رضا: محمد سعيد

35ـ الصلات الثقافية بين العراق وبلاد المغرب العربي في العصر الإسلامي .

الرقيق القيرواني: ابو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت417هـ)

36ـ تاريخ افريقية والمغرب , تحقيق المنجى الكعبي , تونس ,1968م .

ابو زكريا: يحيى بن ابي بكر (ت النصف الثاني ق4هـ)

37ـ السيرة واخبار الأئمة , مصر (ب. ت) .

زغلول: سعد

38ـ تاريخ المغرب الإسلامي , الاسكندرية (ب. ت) .

ابو زهرة: محمد

39ـ مالك ـ حياته وعصره ـ آراءه , دار الفكر العربي ,1963م .

السائح: الحسن

40ـ الحضارة المغربية عبر التاريخ , الرباط ,1975م .

41ـ دفاعاً عن الثقافة المغربية , نشر وتوزيع دار الكتاب , الدار البيضاء ,1968م .

سالم: سيد عبد العزيز

42ـ المغرب الكبير, القاهرة ,1966م .

43ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس , دار المعارف , لبنان,1962م .

السامرائي: خليل إبراهيم وآخرون

44ـ تاريخ المغرب العربي , مديرية دار الكتب للطباعة والنشر , جامعة الموصل,1988م.

السامرائي: عامر حميد

45ـ الصلات الحضارية بين مدن مشارقية ومدن مغربية من القرن الأول الهجري حتى بدايات القرن الثالث الهجري دراسة تاريخية مقارنة , مركز البحوث والدراسات الإسلامية ، ديوان الوقف السني , بغداد ,2009م .

ابن سعيد المغربي: علي بن موسى (ت673هـ)

46ـ المغرب في حلى المغرب , تحقيق شوقي ضيف , القاهرة,1964م .

السلاوي: أحمد بن خالد الناصري

47ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى , القاهرة,1310هـ/1992م .

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت911هـ)

48ـ تاريخ الخلفاء , القاهرة ,1964م .

الشافعي: ابو عبد الله محمد بن إدريس (ت240هـ)

49ـ الرسالة , تحقيق أحمد محمد شاكر , القاهرة ,1309هـ .

الشرقاوي: محمد عبد المنعم وآخرون

50ـ ملامح المغرب العربي , الاسكندرية , 1959م .

الشماخي:

51ـ سير علماء جبل نفوسة

الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر (ت548هـ)

52ـ الملل والنحل , القاهرة ، 1317هـ .

ابن الصغير المالكي (ت281هـ)

53ـ اخبار الأئمة الرستميين وسيرهم , تحقيق وتعليق محمد ناصر إبراهيم بحاز , دار المغرب الإسلامي ,1986م .

الطبري: محمد بن جرير (ت310هـ)

54ـ تاريخ الرسل والملوك , تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم , دار المعارف , مصر,1961م.

العبادي: أحمد مختار

55ـ في تاريخ المغرب والأندلس , دار النهضة العربية للطباعة والنشر , بيروت (ب. ت) .

56ـ في التاريخ العباسي والأندلسي

ابن عبد الحكم: ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ)

57ـ فتوح مصر والمغرب , تحقيق عبد المنعم عامر , القاهرة ,(ب. ت) .

ابن عبد الحكم: ابو محمد عبد الله بن الحكم (ت214هـ)

58ـ سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن انس واصحابه , نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد,ط5, دار العلم للملايين , بيروت ,1387هـ/1967م .

عبد الرزاق: محمود إسماعيل

59ـ الأغالبة , مكتبة رأفت , جامعة عين شمس , 1972م .

ابن عذارى المراكشي: ابو العباس أحمد بن محمد (كان حياً سنة712هـ)

60ـ البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب , نشر كولان وليفي بروفنسال , ليدن ,1948.

عبد الوهاب: حسن حسني

61ـ ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية , الناشر مكتبة المنار , تونس,1964م .

ابو العرب: محمد بن أحمد بن تميم القيروان (333هـ)

62ـ طبقات علماء افريقية وتونس , تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي , الدار التونسية للنشر , 1968م .

فكري: أحمد

63ـ مسجد القيروان , مطبعة المعارف , مصر , 1355هـ/1936م .

ابن قتيبة الدينوري: ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ)

64ـ المعارف , تحقيق ثروة عكاشة , مطبعة دار الكتب , القاهرة ,1960م .

ابن القوطية القرطبي: ابو بكر محمد (ت367هـ)

65ـ تاريخ افتتاح الأندلس , تحقيق خوليان روبيرا , بيروت , 1958م .

لقبال: موسى

66ـ المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج , نشر مطبعة البعث بقسنطينة , 1969م .

المالكي: ابو بكر عبد الله بن عبد الله (ت نهاية ق4هـ)

67ـ رياض النفوس , نشر حسين مؤنس , مكتبة النهضة , مصر , 1951م .

المبرد: ابو العباس محمد بن يزيد (ت285هـ)

68ـ الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف , تحقيق زكي مبارك , 1937م .

مجهول:

69ـ الاستبصار في عجائب الأمصار , نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد , مطبعة جامعة الاسكندرية , 1958م .

مجهول:

70ـ الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية , تونس , 1329هـ .

محمد: سوادي عبد

71ـ دراسات في تاريخ المغرب , بغداد , 1988م .

محمود: حسن

72ـ العالم الإسلامي في العصر العباسي

ابن المرتضى: أحمد بن يحيى (840هـ)

73ـ المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل للقاضي عبد الجبار الهمداني , تحقيق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي , دار المطبوعات الجامعية , الاسكندرية ,2972م .

المسعودي: ابو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت346هـ)

74ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر , المكتبة الإسلامية , بيروت , 1965م .

المطوي: محمد العروسي

75ـ سيرة القيروان , الدار العربية , تونس , 1981م .

معروف: ناجي

76ـ اصالة الحضارة العربية ,ط3, دار الثقافة , بيروت , لبنان , 1395هـ/1975م ,

المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ)

77ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب , تحقيق إحسان عباس , دار صادر , بيروت, 1968م .

مؤنس: حسين

78ـ فتح العرب للمغرب , القاهرة , 1947م .

79ـ المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية , المجلة التاريخية المصرية , المجلد4 العدد 1
.

النويري: شهاب الدين عبد الوهاب (ت733هـ)

80ـ نهاية الأرب في فنون العرب , المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ,القاهرة

(ب. ت) .

الوزان: الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي

81ـ وصف افريقيا , مطبعة درافة البلاد , الرباط , 1980م .

ياقوت الحمو: شهاب الدين ابو عبد الله (ت626هـ)

82ـ معجم البلدان , دار صادر للطباعة والنشر , دار بيروت للطباعة والنشر ,1375هـ/1956م .